عزة آغا ملك

ماذا فعلت بأطفالك يا أبي؟

رواية



ماذا فعلت بأطفالك

يا أبي؟

Ezza Agha Malak

Qu'as-tu fait de tes mômes Papa?

Roman

alfAbarre

عزّة آغا ملك

ماذا فعلت بأطفالك يا أبي؟

روايـــة

ترجمة: كيتي سالم

دار الفارابي

الكتاب: ماذا فعلت بأطفالك يا أبي؟
المؤلف: عزّة آغا ملك
ترجمة: كيتي سالم
لوحة الغلاف: جيسكا فلاڤيا

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2012
ISBN: 978-9953-71-726-5

لقد تمت كتابة هذه الرواية بالتواطؤ
مع إيريك
حين بلغ الخامسة عشرة
وشكلت جملته الصغيرة
نقطة الانطلاق:
"كلما تعمقت في اكتشاف وجه أبي،
ازداد تقديسي لأمي".

إنه لمن الأيسر للوالد أن يكون له ابن
من أن يكون للابن أب صالح.

يوحنا الثالث والعشرون

إن أهم ما يمكن أن يفعله الأب
لأولاده، هو أن يحب أمهم.

تيودور هيزبورغ

القدوة،
هي كل ما يستطيع الأب أن يصنعه لأولاده.

توماس مان

1

كم كان الطقس جميلاً ونضراً ذاك الصباح من شهر آب حين أيقظتنا أمنا من نومنا باكراً، أنا وأختي الصغيرة! لم أكن أعرف حينذاك أنه سيكون صباح مفاجأة مفعماً بأحداث غير متوقعة و... بمغامرات محفوفة بالمخاطر. كانت الشمس تبزغ خلف الجبل وهي تسقط أشعتها الذهبية الضاربة إلى الحمرة، كشعر أمي، فتنعكس، أي تلك الأشعة على أوراق الأشجار المثمرة وهي تحمل، بزهو، ثمارها البالغة النضج، وقد كللتها قطرات الندى الصباحية. نسمة عذبة دافئة امتزجت بأبخرة مالحة دغدغت أنفي الذي لم يصحّ بعد. في سفح الهضبة، حيث انتصب منزلنا الأبيض، انبسط البحر وامتد. إنه المتوسط الذي نرتاده، طوال العطلة الصيفية وقد حُرمنا منه تلك السنة لأسباب لا يمكن البوح بها كونها تكاد تُخجِلُ.

كانت الأمواج تتدافع على الشاطئ الرملي وتتكسر كأنها حرير أبيض. خُيل إليّ أنها تبتسم لي وهي تغلفني بحبيباتها السائلة؛ وكما فعل دائماً معي، بحري الأبيض المتوسط العذب.

حديقتنا هذا الصيف تحفة رائعة.

أغصان شجرة الأكدنيا الفتية تنحني من ثقل ثمارها البرتقالية، وقد نضجت. إنها شجرتي أنا؛ وثمارها لي. أختي لا تحب الأكدنيا. ولا يطيب لها مذاقها. أما أنا، فأحبها؛ مثلك، يا أبي!كان لها دائماً بالنسبة لكلينا، أنا وأنت مذاق خاص، طعم نادر، مخملي، حلو، غريب... وبمجمل القول إنه طعم لم أكن أجده في أية فاكهة أخرى. كان زهر هذه الشجرة ذا جمال عظيم تلك السنة، لكم وددت أن تكون هناك لتتأمل معي تطورها الفتان.

لكنتَ عشقتها.

تسلقت جذع شجرتي الملتوي بينما ارتفع صوت أمي من داخل البيت:

"يا أولاد! هيا! تعالوا بسرعة!".

كانت تصرخ عالياً بصوتها الضعيف.

وتستحثنا،

لأن علينا أن نرحل، يا أبي!

أجل، أن نرحل! بعيداً عن هنا، بعيداً عنك.

لكن صدى صوتها العذب قد تلاشى على الغصن المرن الذي كنت أحاول أن أمتطيه والذي كان ينحني برشاقة تحت الخمسة والعشرين كيلو من وزني كطفل طويل القامة ونحيف.

تسمرت على أعلى غصن، وقد فُتنتُ بكل تلك الثمار، وبكل ذلك البهاء، وقد سددت أذنيَّ عن نداءات أمي المتكررة. لم أكن أريد ترك هذا المكان الرائع، ترك شجرتي، قبل أن آخذ الكمية اللازمة لمذاقي و... لحنيني.

حين سنصل إلى هناك، إلى تلك القارة الموعودة، لا شك أنه سيجتاحني هذا المرض العضال المسمى بالحنين!

ثمار الأكدنيا![1]

فاكهتي... وقد أصبحت مستديرة كالخذاريف!

تركتها تنضج هذا العام على "أمها" الشجرة. لقد كان بعض منها لا يزال أخضر، وهي ستنضج بعد رحيلنا،

حين نكون قد غادرنا بلدك، يا أبي.

لاشك أن غيابنا وكذلك الشوق سيُلاحظان حتماً، لأنه لا أحد قد يأتي ليقطف الثمار التي ستتكوم على الأرض.

أما أنا، فلن أكون هنا لجمعها.

وكذلك أنت!

قطفت عشر حبات من الأكدنيا ودسستها في جيبي بعد أن أكلت واحدة، صفراء جداً، ومستديرة تماماً، كأنها البدر.

كانت متعة في مذاقها لا توازيها أية متعة أخرى.

كان نسيجها رقيقاً لكنه متماسك،

---

(1) وردت كلمة أكدنيا بأحرف لاتينية في النص الفرنسي (المترجمة).

أما طعمها فسكري عذب،
ولبها دهني بشكل كبير وقد غلفتها قشرة تذوب رقة.
كم استمتعت بها وأنا أفكر فيك، يا أبي، أنت الذي تحب مثلي، هذه الثمرة الرائعة.

2

راحت جيوبي تنتفخ بشكل مفرط.

كنت أعرف أن الحفاظ عليها ليس بفكرة جيدة، وأنني سأوبخ بسبب تلطّخ ثيابي النظيفة المُعَدَّة للسفر. لكن مجرد فكرة مغادرة هذا العالم النباتي (الذي لن أعود إليه على الأغلب) والذي أعشقه، والعزيز عليَّ، هذا الركن من طفولتي السعيدة إلى حد ما، كان يحثني على العصيان، وعلى صم أذنيّ ونسيان التأنيب الذي قد ينتظرني.

ـ "تباً، أين هم هؤلاء الأطفال؟".

تساؤل قلق أجاب عنه صدى نداءات أخرى:

ـ "أيها الأولاد؟ أين أنتم؟ هيا! تعالوا بسرعة! يجب أن نرحل وحقائبكم ليست بعد جاهزة...!".

كان صوت أمي العذب والعصبي (والذي بدا موجهاً إلى أمها، جدتنا، التي علينا أن نفارقها هي أيضاً)، قد راح يرتفع من جديد، بينما كانت أختي الصغيرة تحاول أن تتسلق شجرة الخوخ، شجرتها، وتقطف عدداً من ثمار الخوخ، ثمارها.

كانت هي الأخرى تريد أن تأخذ نصيبها من الحنين قبل أن تغادر الأماكن!

كانت أشجار الأكدنيا والخوخ، وكذلك كل الأشجار المثمرة الأخرى في حديقتنا، ابتداءً من شجرة المشمش حتى شجرة الزيتون، مروراً بشجرة الدرَّاق، والجوز إلخ، وكذلك كل النباتات المحيطة بها، كانت أمي قد زرعتها حين وصلنا من فرنسة، إلى هذه المدينة اللبنانية. فحديقة بيتنا الكبير الذي اشتريتماه كلاكما، يا أبي (أتتذكر ذلك؟) كانت حينذاك قفراً؛ لم يكن فيها أي نبات يُظهر جمالها. كانت تفترسها الأعشاب البرية والحُرَيق، إلَّا أنها وجدت بسرعة وجهها الإنساني كحديقة، بنموها وازدهارها الذي لا مثيل له. وحتى الأعشاب الطيبة الرائحة، والنباتات العطرة ومجموعة نباتات طبيعية من الحشائش، كانت تنبت فيها بحيوية ودفق وتعطي براعم وفيرة. فبفضل اهتمام أمي وعنايتها، وبالرغم من عملها في المستشفى وفي الجامعة، قد خصصت جزءاً من وقتها ومن قلبها إلى جنة عدن هذه كما كان يطيب لها أن تسمي هذه الروضة السخية. كانت ترعاها بحب.

إنه الحب في كل اتجاهاته الذي كان يجعل هذه النباتات تنمو، فيحولها بهاءً وروعة، ويُجَملها فيسبغ عليها وجهاً بشرياً، أملس وعذباً.

الحب، يا أبي! هل تدرك ذلك؟

إنني لا أزال أتخيلها، أمي الحبيبة.

بقبعتها وقفازيها، وهي تُقَلم وتُشَذِّب، وتستعمل المقص الخاص بالنبات شأنها شأن محترف. لقد كنتَ فخوراً بشجرات وردك، وبعريشة زهر العسل، وبأزهار الغردينيا، والبيغونيا المزدوجة... كنت تقول لها، يا أبي، إن يدها خضراء، وتهنئها على موهبتها في الاعتناء بالنبتات وقد وضعَتْ في ذلك روحها!

كنتَ تمرر يدك على باقات الخزامى الكثيفة وتهز، بإعجاب، أزهارها ذات الزرقة المتناهية، ثم ترفع يدك حتى أنفك، وقد انبسط منخاراك، لتشم عطرها بعمق. كنتَ تبتسم لي قائلاً: " إن الماما شجاعة، أليس كذلك؟ ".

وكنتُ أبادلك ابتسامتك وأنا أجيب: " أمي؟ طبعاً، إنها كذلك! ".

3

كنا معلقَين، أنا وأختي، فوق أغصاننا التي انحنت من ثقلها المتعدد الألوان (من ثقل ثمارها ومن ثقلنا)، حين ظهر رأس جدتي من فتحة باب الحديقة وهي تنادينا: "بسرعة، بسرعة، يا أولاد. لا تُغيظوا أمكم؛ إنها متوترة الأعصاب. سيارة التاكسي تنتظر! و... عليكم أن ترحلوا من هنا. الآن، حالاً! وإلّا فسيفوت الوقت! هيا! أسرعوا! آه...".

راح صدى كلماتها الأليمة يلامس أغصاننا وآذاننا اللامبالية.

ما معنى "سيفوت الوقت"؟

لم أكن أعرف بدقة لماذا علينا أن نغادر بسرعة كبيرة وأن نبتعد عن هذه الأماكن بعجلة. ما سبب تلك العجلة.

وهذا الخوف الحذر الذي قد استولى على أمي!

صحيح أننا كنا نسمع بوضوح قصفاً مدفعياً، لكنه آتٍ من بعيد.

ومع ذلك... بالرغم من أن الفيلا التي نسكنها كانت تقع خارج ميدان المعارك، فلقد انتابني حدس غامض ومقلق وأنا أسمع الأوامر التي أعطتها أمي وإيعازات جدتي، والتي

راحت تشتد وتتزايد. كان حدسي يملي عليَّ أن هناك خطراً في الجو يحلق فوق رؤوسنا إذا لم نستعجل، وإذا لم ننفذ الأوامر فوراً.

كان هذا \الخطر، كما فهمته بعد قليل، هو أنت، يا أبي! كنا نخاف أن نراك وقد ظهرت فجأة، تريد بأي ثمن أن تعرقل خطة رحيلنا، بل هربنا المخطط له، وتجبرنا على البقاء كما فعلت سابقاً، لتعذب أمنا ثانية وتذيقها الهوان .

كان علينا أن نهرب.

أن نهرب منك، يا أبي، وأن نكون بمنأى عن متناول يدك، وعن نظرك، وعن شخصك!

الهرب من مضايقاتك الملحة، ومن إهاناتك، ومن عنفك.

كم من مرة رأيتك تقترب من أمي، وقد رفعت يدك مهدداً، كي تلوي ذراعها. أما هي، فلقد كانت، كالحيوان الجريح، تئن شاكية، بصوت خافت مكتوم. ثم ترفع رأسها بكبرياء منتصبة ثانية لتنجو من قبضتك المؤلمة والتي شدَّت عليها طويلاً. وأختي الصغيرة، جاثية على ركبتيها، تتوسل إليك حينذاك، كي تتركها وهي تضم ساقك، وتوجه ضربات صغيرة على ذراعك التي ما زالت مرفوعة. لكن توسلها ذهب أدراج الرياح "من أجل أكدنيا" كما يقول المثل الفرنسي الشائع هنا. (أترى لماذا أحب الأكدنيا، يا أبي؟ إنها تصلح

لإبراز جانبك السلبي). وأنت تهدد دائماً، وتشتمنا، ضارباً عرض الحائط بتوسلاتنا.

إن هذا الاستعجال في الهرب، كان من أجل شيء أعظم أهمية وأشد خطراً: الخطف المحتم.

خطفنا نحن. أنت الرجل المتفوق في مجتمعك الشرقي، أنت الذكر، كان لك الامتياز الذكري البحت: الحضانة؛ حضانتنا، أي الحق في أن تأخذنا.

وقد صدَّقت عليه السلطات الدينية، وأقرته الأحكام القانونية.

إن قوانينك، يا أبي، طائفية، ذكرية...

ظالمة، أولاً.

حينذاك، لم أكن أدرك وحشية هذه القوانين. لم أكن قد تجاوزت العاشرة حين تخليت عنا. ثمانية أعوام حين بدأت أخطاؤك ونزواتك تظهر. لم أكن أستطيع أن أفقه شيئاً منها؛ وحتى التعليقات الواضحة لمحامي والدتي والذي كان يشرح لها الوضع: في حال انفصال الزوجين، فإن للأب الحق بحضانة الأطفال، بدءاً من التاسعة للبنت، والسابعة للصبي. كنت أسمع هذه الكلمات من دون أن أفهم مدلولاتها؛ ولا الخطر الذي قد ينتج عنها. كل ما استطعت فهمه هو أن محامي والدتي لا يستطيع أن يفعل شيئاً في وضع كهذا ولا أمام تلك القوانين... القرآنية!

اليوم، بلغت الخامسة عشرة، وأنت تجهل ذلك على

الأغلب. بلغت هذه السنوات بعيداً عنك، بعيداً عن حديقتنا حيث كانت أمي تحتفل بأعياد ميلادنا، بعيداً عن بيتنا اللبناني. في الخامسة عشرة، يستطيع المرء أن يفقه الأشياء التي كانت تفلت من فهمه في الماضي وهو طفل في العاشرة من عمره.

أما اليوم، فلقد اتضحت الأمور في رأسي، وإنني أدرك مدى تعقيد الوضع الذي أغرقتنا فيه والمستمر منذ سبع سنوات؛ كما أدرك جدية التهديدات وخبث التلميحات ؛ وتصرفك...

اليوم أفهم بشكل أفضل فظاعة قوانين بلدك، ودينك؛ وإنسانيتهم، وظلمهم للنساء.

أقصد الأمهات.

4

ماذا ينتظر نساء بلدك لفضح تلك القوانين؟
ليرفضنها، وليطحن بها، وليغيّرنها؟
تغيير تشريعاته؟
ماذا ينتظرن لفضح شر تفوّق الذكر؟
أجد أن قانون الحضانة فظيع!
دون التطرق إلى موضوع الطلاق!

إن مجرد اقتلاع الطفل من أمه التي ولدته... ليُعطى إلى أب غير مبالٍ وغير مسؤول، ترك بيته ليلحق بعشيقته... كي ينصاع إلى رغبته، وإلى غريزته...

يا للضلال!

فبعد أن حملته في بطنها، وغذّته من أحشائها وولدته بكل ما تقتضيه عذابات الولادة... بعد أن أرضعته من ثديها، وعلمته الزحف، والمشي، والكلام، ومجابهة الحياة، وتحمل صعوبات وجوده... كيف تتدخل هذه القوانين الغاشمة لتتجاهل عما للأم من أفضال، ولتنكر جهودها كافة فتقطعها عن هذا الحمل الوجودي وذلك بأن تنزع منها ثمرة فؤادها؟

هذه المرأة التي تمثل العالم والحياة في نظر طفلها،

كيف ترغمها القوانين، وكذلك الرجال على أن تتخلى عن كنزها إلى شخص لا يهمه أمر هذا الطفل، وقد تركها بملء إرادته، وهجرها وخانها؟

بأية قوانين تتحمل عذاب هذا الانفصال؟

الظلم يقتلني.

سأصبح ذات يوم محامياً لأدافع عن قضية واحدة: الظلم الذي أصاب النساء؛ ظلم الرجال... ظلم القوانين... ظلمك... أنت، يا أبي!

ـ "أيها الأولاد! هل تسمعونني؟ هيا تعالوا بسرعة! سريعاً أقول لكم!".

تلاشى صدى صوت جدتي ثانية وقد تبعثر في الهواء. عادت النبرة ذاتها الملحة لتبعث فيَّ من جديد الشعور بالخطر.

لوحْتُ لأختي الصغيرة التي كانت لا تزال على غصن شجرتها الثابت، ورجوتها أن تنصاع.

كانت جيوبنا قد امتلأت بالثمار الطرية، فانزلق كل واحد عن جذع شجرته، شأننا شأن سنجابين طائرين لنلحق بأمنا التي تحيط بها جدتنا وجدتها.

جلست النسوة الثلاث في البهو أمام حقائبنا الصغيرة (ذات الدواليب) وقد تُركت مفتوحة. كنَّ ينظرن إلينا بحذر دون أن يلحظن شيئاً أول الأمر.

بدأنا نفرغ جيوبنا بخفة في جوف حقائبنا، جيوبنا الملأى بالفواكه نخفيها كيفما تيسر بين ملابسنا.

إلّا أن أمي لمحت حركاتنا الخبيثة والمتواطئة.

فصرخت وهي تنظر إلى قطافنا يتوزع بين الملابس:

ـ ما هذا؟ ما هذا؟ تأخذون فواكه في الحقيبة؟ كلا! لا يمكن! ألا تريان أنها ناضجة جداً و... دبقة؟ ستتلطخ الملابس بها...

لكن أختي الصغيرة كانت أشجع مني إذ تمتمت قائلة:

ـ أرجوك يا أمي. أحبها كثيراً... آخذ بعضاً منها. لن نجد، حيث تأخذيننا، خوخاً...، قالت ذلك بصوت خافت متوسل وهي التي تحسن ذلك تماماً.

أضفت وأنا حانق: ـ... ولا أكدنيا، كذلك!

ـ هذا غير مهم، ليس الآن وقت التلذذ بالأكل... كفى نزوات، هيا!

كنا حزينين، وشرعنا نسحب ببطء ما دسسناه تحت قمصاننا. لم نكن نرغب في إغاظة أمنا وإزعاجها. يكفيها ما كانت عليه... بسببك... يا أبي!

ـ لكن دعيهما يفعلان ما يشاءان، يا عزيزتي! ليس هذا بمصيبة. لنرَ! أضافت جدتي، وقد اغرورقت عيناها بالدموع. يمكنهما الاحتفاظ بهذه الثمار بوضعها في كيس... فهذا يحمي... سيأكلانها هذا المساء... أو غداً... أو فيما بعد ...

لكن محاولات جدتنا في إقناع أمنا قد باءت بالإخفاق وبدت أمنا أشد تصميماً:

ـ لا مجال للنقاش... ثم إننا سننام هذا المساء عند جاكي في بيروت. سنبحر غداً صباحاً على متن مركب عسكري. لايزال الطريق طويلاً. هل تفهمان؟ كلا. ليس هذا موضع بحث...

راحت جدتي تُلح كأنها تطلب نعمة ما.

ـ إذن يأخذان حبات الفاكهة وحدها ليأكلانها في المركب! أو في التاكسي! ولمَ لا في التاكسي... أو الآن...

ـ يستحيل ذلك الآن. ويجب إغلاق الحقائب. خذوا! رتبوا هذين الكتابين! ستحتاجونهما في المركب ...هيا! استعجلتنا أمنا بصوت يخنقه الألم.

يبدو أنها كانت على وشك البكاء.

أضافت جدتي وهي تغمزنا بعينها:

ـ هيا يا أعزائي، افعلوا ما تقوله لكم أمكم.

ورأيناها تدس الثمار خلسة في كيسين من البلاستيك أخفتهما في حقائبنا، بين ملابسنا النظيفة والمطوية جيداً.

5

كانت أمي، كمن أخذه الدوار، أو أخذته سكرة لا يمكن السيطرة عليها، تتجول من غرفة إلى أخرى، من دون هدف واضح، لتعود أمام حقيبتينا الصغيرتين. لم تعد تعرف ماذا تضيف إلى الحقائب أو ماذا تُخرج. كانت تفحص محتواها، وترفعه، ثم تعيده. "خمسة عشر كيلو الحد الأقصى لكل شخص! خذوا معكم ما هو ضروري بحت"... كانت قد أوصت هاتفياً المسؤولة عن إجلاء الرعايا الفرنسيين، في سفارة فرنسة في لبنان.

ثم رأيت أمي تدخل غرفتها، غرفتكما المشتركة، يا أبي، حيث كنتما تخططان لمشاريع مختلفة عن مستقبلنا، وحتى مشاريع توفير مصرفية لتدفعا فيما بعد مصاريف دراساتنا الجامعية.

خرجَتْ مسرعة من غرفتها وهي تردد: " هيا... أسرعوا! لم يعد لدينا وقت نضيعه... ". كانت تقول ذلك بشرود كما لو كان يطاردها شبح. ارتدّت بسرعة كأنها تلقي نظرة أخيرة، أو كمن أراد أن يُسدل الستار على شيء حزين، على شجن

عظيم: لا شك أنه ماضيكما المشترك، الذي كانت بداياته باسمة وسعيدة، والتي تحولت إلى جحيم حين أوجَدْتَ لأمي منافسة: عشيقتك، المرأة ذات السلوك الشائن.

لم أكن أعرف حينذاك أن \الشبح الذي يستطيع أن يقتفي أثرنا والذي كنا نخافه خوفاً عظيماً، هو أنت!

لماذا يتبرأ زوج بمكر من ماضيه، فيصبح رذيلاً وفظاً، وبمجمل القول شريراً\، بمجرد أن يقع بين ذراعي امرأة مشبوهة؟

هل السبب في أن تلك المرأة شريرة؟

لماذا يتخذ البغض سلوكاً حين يشعر بأن المرأة الجديدة تُسَيِرُه؟

هل يروق لك دورالتحكم هذا،يا أبي؟

هي تتحكم بك، فتتحكم أنت بنا بدورك.

كأنك تريد أن تثأر لشخصيتك التي تحولت إلى عشرة مسوخ منك.

هذا ما كانت تُفصح عنه حركاتك، وكذلك مواقفك.

براءة أمي، تفانيها، طيبتها، إخلاصها... هل مللت من كل ذلك؟ هل راح يضجرك العيش مع امرأة شريفة؟

هل تبحث في شيخوختك عن جديد؟ عن تجديد؟ عن النذالة والخلاعة؟ عن شيء من السادية؟ عن لعب دور المخاتل؟

أسمح لنفسي اليوم، أن أطرح على ذاتي (وعليك) تلك الأسئلة.

لم أعد طفلاً! ها قد بلغت الخامسة عشرة يا أبي.

بلغتها اليوم. وأنت لا تعرف ذلك.

إنها المراهقة التي تقترب من النضج!

يمكنك كذلك أن تقول إنه سن رشد المراهقة. في تلك السن، يبدأ الإنسان بالفهم!

نظرت إلى أختي الصغيرة، وقد جلست بالقرب من حقيبتها، والكلب الصغير بين ذراعيها. كان وجهها العذب واجماً وحزيناً.

إن الحزن على رحيلنا المفاجئ يشبه ضرباً من الحرمان؛ خيبة ما.

كانت تدرك هي أيضاً في تلك اللحظة، مدى الارتباك بسبب هربنا الطارئ، كما تدرك وضعنا الاستثنائي الذي لا يخلو من الغرابة: الرحيل في الصباح الباكر وبسرعة.

لن يكون سفرنا خالياً من المشقات، هذا ما كانت تقوله نظراتها القلقة.

ثم هدأت أمي قليلاً وتوقفت عن الركض حين رأت السائق (الذي كان سينقلنا إلى بيروت) يدخل البهو، واقترح أن يحمل أمتعتنا. كأنها قد أدركت خشونة اللحظة،

فاستجمعت قواها، وأصبحت أكثر لطفاً، وجلست على أريكة.

رفعت نحو السائق وجهاً شاحباً يشبه تمثال مايكل أنجلو "الشفقة":

ـ لكن كيف نصل إلى بيروت عبر تلك الجسور المقطوعة، وكل الطرق المهدمة؟ والقنابل المتبادَلة باستمرار؟ هذا ما أعلِن عنه الآن في الإذاعة...

التصقنا بأمي، كل واحد منا من جهة وقد أدركنا أن المسألة أخطر مما كنا نتصور. أجاب السائق بهدوء:

ـ لا تجزعي، يا سيدتي. اعتمدي عليَّ. إنني أعرف تماماً طرقات ضيقة وممرات أجتازها كل يوم تقريباً، لأنقل الأشخاص الذين يرحلون. فمنذ 12 تموز، أي بدء الاجتياح، لا يقوم الناس إلّا بهذا: الرحيل. أو الرحيل ثانية. كثيرون هم المهاجرون الذين عادوا هذا الصيف إلى لبنان ليروا أسرهم... حزموا أمتعتهم ورحلوا منذ اليوم الأول لهذه الحرب القذرة. العمليات الحربية الإسرائيلية مستمرة... منذ ثلاثين يوماً بالضبط! إنها أعمال جنونية دامية... لا تُصَدَّق! ما هي الجريمة التي ارتكبها لبنان ليتحمل عنف الآخرين وتعسفهم؟

قطع صوت جدة والدتي العدائي نواح سائقنا وشكواه بقولها:

ـ ولا أحد يقول متى سيتوقف كل ذلك؟ سألت وهي تقطب حاجبين أشقرين إلى حد ما.

ـ الله وحده يعرف ذلك! إن حزب الله يرد بعنف... والعنف يُنتج العنف... أليس كذلك، يا سيدتي؟

أرفق السائق سؤاله بحركة من رأسه تعني الأسف.

6

لاحظت أمي رغبته في الاستفاضة، فقطعت حديثه الذي وجدته باعثاً على القلق. كانت أحداث الاشتباكات بين حزب الله وإسرائيل تُبث من كل قنوات التلفزيون ومن الراديو الذي بقي مفتوحاً:

ـ أية طريق ستسلك؟ قل لنا! يجب أن أعرف ذلك قبل أن نغامر...

ـ يصعب عليَّ بعض الشيء أن أشرح ذلك، يا سيدتي! إن الشوارع الصغيرة التي سأسلكها لا تحمل اسماً. لكنني أعرفها كلها، اطمئني. أجاب السائق ملمحاً أنه من العسير على امرأة أن تفهم الشؤون العسكرية وما هو من اختصاص الرجال.

إنها فكرة تقليدية للناس الأميين.

ـ أما أنا فأريد أن تشرح لي أي مسلك سنأخذ! هذا مهم...

ابتسم السائق بطيبة. لقد أعطته أمي الفرصة كي يُظهر تفوقه الذكري وكذلك خبرته كسائق محترف وماهر:

ـ ثقي بي، يا سيدتي! سنسلك معابر لا تخلو من

المشقة، كما سنتخذ طرقاً غير معبدة لكننا سنصل إلى فرن الشباك عند أصدقائكم، بأمان وسلام... قولي إن شاء الله! لنسلم أمرنا إلى الله... و...

قاطعته أمي، من جديد، من دون أن تترك له متعة الاستفاضة بالحديث:

ـ يمكنك أن تأخذ هاتين الحقيبتين الصغيرتين. هيا! أترك لي الحقيبة الكبيرة...

ورفعت عن جبينها خصلة ذهبية أعادت تثبيتها بعصبية بمشبك شعر.

نفذ السائق الأوامر وقد أمسك حقيبتينا الصغيرتين اللتين كانتا تتأرجحان في قبضته الضخمة.

ورأينا ثمارنا المحرمة، المخبأة بين ملابسنا، تُحمل بسرعة نحو الخارج لتوضع بالقرب من صندوق سيارة المرسيدس العتيقة وقد فُتِح. تبادلنا نظرة تواطؤ مع جدتنا، بينما كانت نسمة عليلة تداعب الأشجار وتحرك الأوراق المخضوضرة. كان ينبعث عطر العسلة والخزامى وقد امتزج بنفحة هواء مالح أتت من البحر لتداعب منخريي. بعثت تلك الرائحة في نفسي كآبة جديدة أقرب إلى القلق.

عاد السائق إلى البهو. راح ينتظر أن تُغلقَ حقيبة أمي. وهو يتابع حديثه:

ـ هل تعرفين، يا سيدتي... أنك محظوظة، أنت التي تتمتعين بالجنسية الفرنسية. إن فرنسا تهتم جيداً بكم. أما

نحن، اللبنانيين التعساء الذين لا نملك شيئاً، ولا حتى إمكانية الرحيل... فمن سيهتم بنا؟ لا أحد!

ـ سيكون لديكم الله... سيكون معكم! أجابته جدتي مشاكسة. اتكلوا عليه. كما اعتدتم أن تفعلوا! إنه هو الذي...

كانت جدتي عقلانية من دون أن تكون ملحدة، فهي من أنصار الحداثة من دون أن تتصرف باستهجان، وكانت غالباً ما تلقي بنكبات الإنسانية على الله الذي ينسى أحياناً أن ينقذ البؤساء من المصائب التي تقع على رؤوسهم. إلّا أن أمها صححت الفكرة فوراً قائلة: "لا تجدفي، هيا! إن الله يعرف ما يفعل. فهو يُعطي دروساً وأمثولات. يختبر بها الإنسان!".

صححت ابنتها بدورها تلك الفكرة قائلة: "لكنه يغالي أحياناً...".

بمجمل القول لم يكن لجدتي ولجدة أمي وجهة النظر ذاتها لاسيما في المواضيع الميتافيزيقية.

بدا السائق غير راض عن ذاك الجواب المُجدف والمتهكم بعض الشيء، فجلس على طرف الأريكة وقد ارتسمت كزازة استياء تحت شاربه الكثيف، أجاب قائلاً:

ـ عندك حق، يا سيدتي. يبدو لي أن الله قد نسينا. لقد نسي لبنان. ها نحن نعيش ثلاثين يوماً من الرعب! لكن لماذا؟ هل تعرفون حصيلة القصف لهذا الشهر؟ أكثر من ألف ميت، وثلاثة آلاف جريح، وبضعة آلاف مشردين من بيوتهم ولم ينتهِ الأمر بعد! لاتزال هناك جثث يعثرون عليها تحت

الأنقاض. يقصف الإسرائيليون كل الأمكنة، وفق هواهم وحسب اختيارهم من بُنى تحتية وغيرها. لهم أهداف محددة. خذوا... على سبيل المثال... المستودعات النفطية لشركة كهرباء "الجية" الواقعة في جنوب بيروت... لم يبقَ شيء إلّا تيار مدّ وجزر أسود ضخم راح ينبسط على مائة كيلومتر من الشاطئ. وتَدَفُق النفط الذي لا يمكن السيطرة عليه قد وصل إلى شواطئ السباحة وإلى مرافئ الصيد...

كنا نصيخ السمع بملء آذاننا. كانت أمي، وجدتي، وجدة أمي يصغين بانتباه خاص. لم يُذع الراديو كل شيء، هذا ما أشارت إليه أمي. وبما أن السائق كان يُغْني حديثه بأحداث الأمس، بدت النسوة الثلاث متضايقات من وصف الوضع الرهيب. وللحظة صمتت النسوة وجلات. أما نحن فلقد زدنا التصاقاً بأمنا.

ـ يوجد، كل يوم، كومة من السمك الميت... أضاف ذو الشارب بينما كان صوت في أعماقي يحدثني بأنانية قائلاً: "يا رب، امنع رحيلنا! فإنني لا أرغب في ذلك...".

7

كنت أظن أن كل هذه القصص لا تهم أختي الصغيرة التي كانت تلعب مع ميكي. لكنني رأيتها وقد انتصبت بسرعة لتقترب من الرجل ذي الشارب، ولتعبر له عن مشاركتها:

ـ أسماك ميتة! لكن كيف ماتت؟ ألانها عبّت المازوت؟

أهمل ذاك الرجل السؤال وارتسمت على وجهه مسحة من الأسف ليضيف:

ـ إن منظمة السلام الأخضر تدعو يومياً إلى وقف إطلاق النار لإيقاف هذا النزف الذي أصاب البيئة بكاملها. لكن من سيصغي إليها؟ ولتنظيف الشاطئ من هذه الطبقة المُلَوِثة، يلزم من ستة أشهر إلى اثني عشر شهراً، حسب ما ورد في الأخبار. إذا ما توقف القصف! لأن حزب الله يجيب عن هذا العنف بقصف شمال إسرائيل قصفاً مكثفاً، وتجيب هذه بأعمال انتقامية فظيعة لا تُصَدق... لا تصدق...! راح يردد.

ـ ما هي منظمة السلام الأخضر؟

تجاهل السائق للمرة الثانية سؤال أختي وأجاب موارباً:

ـ لحسن الحظ، لم يصل من المد الأسود إلى شاطئ طرابلس إلاّ القليل. يمكنك، يا سيدتي، أن تقصديه دائماً

للسباحة. قال السائق ذلك وقد وجه حديثه إلى جدتي (لا أعرف لماذا).

ـ لكن لم نعد نستطيع الذهاب للسباحة! لقد أجَّر والدنا...

قرصت أمي ذراع أختي كي تسكت. نظرت الأخيرة إلى أمي نظرة حادة كالسهم معبرة عن احتجاجها ولاذت بالصمت.

ـ يستحيل ذلك! أجابت جدتي وهي تدحض كلام الرجل قائلة: حين ينتشر المد الأسود على السطح، فإن التلوث يصل إلى كل الشواطئ... كلا، لا يمكن أن نجازف بحياتنا ونسبح في البحر...

ـ ليس ذلك ضرورياً، يا سيدتي، أجاب الرجل بنبرة واثق...

لكن أختي لم تنسَ سؤالها المُبعَد. وبالتالي اقتربت من السائق وهزت ذراعه:

ـ ما معنى السلام الأخضر... ما هذا؟ قل لي!

تدخلت أمي قائلة:

ـ كفي عن مضايقاتك! سأشرح لك ذلك فيما بعد.

ـ كلا، الآن!

ـ ليس الوقت ملائماً...

ـ بلى!

وباستياء، أخذت ميكي بين ذراعيها لتدخل إلى غرفتها.

صرخت أمي: ـ تعالي هنا، أغلقي لي هذا الباب بسرعة! هل تفهمين؟ إننا راحلون...

نفذت أختي الأوامربسرعة بعد أن صفقت باب الغرفة بقوة.

لن تكون غرفتها، بعد عدة أيام، إلّا ذكرى بعيدة، يا أبي!

" إننا راحلون ".

لاحظ السائق ـ وقد استغل سكوت أمي التي شرعت في إغلاق حقيبتها ـ أن حديثه قد أثار الاهتمام. فأمسك بالحقيبتين وتابع كلامه وهو يوجهه إلى الملأ:

ـ الدمار في كل مكان. فالمطار والموانئ، وطرق السيارات العريضة، ومحطات الكهرباء، والمجمعات التجارية الهامة، ومحطات الإذاعة، والتلفزيون، والكنائس والمساجد، والمنشآت المدنية، والمستشفيات، وحتى سيارات الإسعاف... وكذلك قواعد الأمم المتحدة.

ـ توقف... توقف... كفى! خذ كل شيء وابقَ خارجاً. سنلحقك!

كانت هذه الأنباء ترهق أمي.

قام السائق بما طلبته منه أمي لكنه عاد إلى البهو ليسأل:

ـ وهذه الأكياس... هل تتركونها هنا؟

ـ بالطبع لا! إنها زادنا ؛ فطائر وفواكه... للأطفال... خذها خارجاً.

بدا الرجل كأنه يريد أن يفرغ كل ما في قلبه. فوجه كلامه إلى جدتي لأنها كانت أشد إصغاءً لخطابه الممل:

ـ وهل تعرفون... أن الخسائر قد تجاوزت المليارين والنصف من الدولارات...

صرخت جدتي: ـ ماذا تقول؟ هذا يعني ملايين الملايين؟ من سيساعدنا في ...

سألت جدة والدتي: ـ كل هذا؟ ألا تبالغ في ذلك بعض الشيء؟

ـ على الإطلاق! لقد أعلنت ذلك كل وسائل الإعلام. إنني لا أختلق شيئاً... مع الأسف، أجاب السائق وهو يبتعد حاملاً طعامنا.

ثم وقفت النسوة الثلاث في الوقت ذاته.

قالت أمي وقد تقلصت تقاطيع وجهها:

ـ حسناً، يمكننا الآن الذهاب من هنا، يجب ألَّا نضيع الوقت...

ثم خرجن من الباب الكبير الذي تُرك مفتوحاً.

8

عقدت حلقي حينذاك كتلة من القلق. نظرت حولي. ذاك البهو، وتلك الجدران، وتلك الأرائك، والبيانو الذي يخصني، وآلة غيتاري...

كان عليَّ أن أترك كل ذلك ؛ كل ذلك العالم.

ورائي.

قبل أن أقرر الخروج من البهو، ألقيت نظرة أخيرة على الجدران الفاتحة اللون حيث عُرضت صورنا الفوتوغرافية الملونة: إنها صور عائلية، صورنا: عُطل، زواج، سفر... صورنا حين كنا أطفالاً صغاراً، صورنا ونحن بلباس السباحة على شاطئ البحر. نحن... نحن... نحن في كل مكان على الجدران. ولست أنت الذي أخذت كل هذه الصور.

كانت أمي لا تفترق عن آلة تصويرها التي تحملها معها في أسفارها. كانت تحب أن تُخلد تلك اللحظات السعيدة، وقد أقدمت أنت على هتكها، وإفسادها، وانتهاك حرمتها. على شقة جدار منزلٍ، كانت صورة فوتوغرافية كبيرة لعريس وعروس. إنه زواجكما، أنت وأمي...

أنت تلبس قميصاً أبيض وعقدة على شكل فراشة.

وتبتسم.

وأمي، وقفت بجانبك، بوجهها الهادئ وقد انحنى رأسها قليلاً على كتفك.

بثوبها الأبيض الناصع.

كانت رائعة، وخارقة وملائكية.

وقد رفعت شعرها، وربطت جزءاً منه.

كأنها السيدة مريم!

كان التعبير عن السعادة التامة ينير وجهيكما. كانت عيونكما تلمع ببريق نضر. كنتما شابين مفعمين بالبهجة وبالحيوية.

مضى على ذلك ثمانية عشر عاماً!

أية ظاهرة رهيبة تُغير الفرد هكذا؟ وكيف يحدث، بين عشية وضحاها، أن تدخل السعادة من الباب لتخرج من النافذة، شأنها في ذلك شأن شبح هاربٍ؟

من السبب؟ وما السبب؟

كنتُ على وشك الخروج، حين وجدت فوق خزانة صغيرة وضعت في المدخل، قصاصة ورقية تحمل كتابتك وكلماتك. إنها قصاصة بقيت مُثبتة بدبوس على باب غرفتكما التي هجرتها أنت، يا أبي.

وبعد مدة من هجرك لنا.

بقيت تلك القصاصة تحيرني.

كنت أقرأها كل صباح، وأعيد قراءتها، وتهجئتها وأنا

أنتظر أمنا لتصحبنا إلى المدرسة، لكنني لم أكن أفقه شيئاً منها. لقد كانت أعقد من أن يفهمها عقل طفل مثلي. كانت تلك الورقة تحمل بصمات شخصيتك السادية. لقد كتَبتَ حرفياً ما يلي:

"سأجعل من حياتك جحيماً يومياً. أعدك بذلك."

إنها كلماتك، يا أبي! موجهة إلى أمي،تذكر ذلك.

إنها كلماتك التي فكرت فيها في أعماقك.

كنت تخاف أن تلفظها، وأن تجعلها ترن.

وخطك الكثيف، والمشوه، والملتوي!

إنه انعكاس عنك!

كلماتك الشريرة، والقاسية

وقد خُطت بإشارات لا تُمحى،

لأنك كنت غير قادر على لفظها عالياً بكامل أحرفها.

لا أراني أتصورك تقولها.

كنت قادراً على كتابتها فقط.

أنت الخجول، الجبان.

حين يُطرح عليك سؤال، تجيب عنه بسؤال آخر.

لا تحتاج الكتابة إلى أصوات؛ ولا إلى ضجيج.

إنها تنشأ في الصمت.

فالصمت جبان.

لا يحتاج إلى أن يفصح عن ذاته.

ضممت تلك الورقة كما تُضم طعنة سكين في الظهر. أو كشيء ثمين وجدته.

لاتزال تحتفظ بثقب الدبوس الذي ثُبتت به وسط الباب. كان على أمي أن تنزعها.

لكن ماذا تفعل بها؟

طويتها بعناية ودسستها في جيبي الدبق مع قليل من الفواكه.

رجعت جدتي نحوي، وقد لاحظت تأخري، فأمسكت بيدي وجرتني إلى الخارج:

ـ لكن ماذا تفعل هنا داخل البيت، يا عزيزي؟ هيا أسرع...

ركضت نحو أمي. كان الجحيم في جيبي.

كان الجحيم الموعود يحرق جوفي.

كنت أريد أن أعرف.

نسيت أن الجميع كانوا ينتظرونني.

ـ كيف يكون الجحيم اليومي، يا أمي؟

سكتت، ووضعت يدها على كتفي ثم سألتني:

ـ لمَ هذا السؤال؟

ـ لا شيء. لا شيء.

لم تلح أمي في السؤال.

لكن، يا أبي! أية جريمة قد ارتكبت أمي نحوك، ما هو

الجرم العظيم... كي تصمم على أن "تجعل من حياتها جحيماً يومياً"؟

هل كنت مريضاً، يا أبي؟

وممن، ومن أي شيء كنت تريد أن تثأر؟

من المرأة التي تحملتك ثمانية عشر عاماً؟

اليوم فقط، أدركت ذلك جيداً.

هذه الكلمة التي تسمرت أشهراً على بابك

وأياماً في جيبي.

قد كُتبت إلى أمي.

كان معناها معقداً جداً بالنسبة إلى سنواتي العشر.

دون أن تراعي طفولتنا الهشة، كنت قد علَّقت بلا خجل ولا حياء، كلماتك المهددة والمتوعدة.

ساديتك!

كنتُ في الصف الخامس الابتدائي.

كنت أستطيع القراءة لكن من دون أن أفقه شيئاً

من المعنى والمرمى، والهدف، والسبب.

لاسيما السبب!

اليوم أفهم

كرهك، وحقدك، وقسوتك الوحشية.

وهذا التصميم آه! يا لقسوته، في تحطيم امرأتك.

المرأة التي اخترتها لتكون أم أطفالك!

اليوم أدرك الجانب الشاذ والسادي لتصرفك.

هل تكون الإله، يا أبي، كي تختلق ضروباً من الجحيم ومن الجنة للواتي تنتقيهن؟

إن الكلمات أشد قتلاً من الأسلحة، يا أبي!

وكنت تعرف ذلك حق المعرفة.

لقد استخدمتَ السلاح الأكثر فتكاً، والأشد تخفياً، والأعظم بتراً، وهو الكلمة، كوسيلة هجوم.

لكن الهجوم يصلح لإصابة خصم أو عدو.

هل كانتِ أمي الحبيبة، بالنسبة إليك إلى هذا الحد؟ عدوة؟

على كل حال، فلقد نجحت في إخافتنا بأسلحتك.

فمنذ سبع سنوات وأنت ترعبنا، يا أبي.

ومنذ أربع سنوات قد هربنا.

لكن إرهابك استمر.

لاأزال أتذكر أنفسنا.

كنا ثلاثتنا بالقرب من السيارة، بالقرب من حقائبنا، خارج تلك الجدران التي خبأتنا طويلاً وحمتنا، والتي حضنت سعادتكما، المخفقة لسوء الحظ، والتي حطمتها يداك، يا أبي، الواقعتان في أيدٍ قذرة!

حزمنا أمتعتنا! ورحلنا، تركنا مسكننا الذي ستستولي عليه بعد رحيلنا وأنت مبتهج.

كنا نرتجف خوفاً

من أن نُفاجأ بقدومك.

فتمنعنا من الرحيل.
ماتزال صورتنا في ذاكرتي.
ونحن نهرب من حربين معلنتين.
صندوق السيارة مفتوح.
أمي ترتجف هلعاً،
وهي تحث السائق على الانطلاق.

9

"هيا، فلنرحل!"، قالت ذلك بصوت مخنوق وهي تصفق بيديها كما تفعل معلمة المدرسة.

للمرة الأولى منذ هذا الصباح، أرى الابتسامة تشرق على وجه أمي. ضمتنا إليها، شعَّثت شعرنا قليلاً ولفظت بعذوبة:

ـ هيا، هيا! اركبوا السيارة. أما بالنسبة إلى فواكهكم...

قاطعنا كلامها ونحن نقول معاً:

ـ هل نأخذها معنا؟

ـ كلا! أخيراً أجل... يمكنكما أن تأكلاها في الطريق...

هل منحتنا أمنا هذا الامتياز لتلهينا عن مخاوفنا خلال سفرنا المحفوف بالمخاطر؟

كدنا على وشك أن ننفجر بالضحك لمجرد التفكير في أن فاكهتنا ترقد، دون علم منها، وسط أمتعتنا. لكننا ضبطنا ضحكنا خوفاً من أن نلفت نظرها إلى الممنوع. الفاكهة المحرمة.

أجابت بحنان:

ـ لا تقلقوا، يا أعزائي! إن ثماراً كهذه تجدونها هناك...

بوفرة. لن يكون ذلك ما ينقصنا! حين سنصل إلى مدينة إكس، سنقيم فترة عند أصدقائنا سوزي وجميل. لقد قدموا لنا من تلقاء خاطرهم طابق حديقتهم الأرضي والخالي.

توقفت لحظة ثم أضافت موجهة كلامها إليَّ وهي تداعب رأسي:

ـ لديهم حديقة رائعة. لابد أنك تتذكر ذلك، أنت. هناك كثير من الأشجار المثمرة. كم من المرات أخذتك إلى بيتهم حين كنا في مرسيلية؟ كم من المرات لعبت في تلك الحديقة مع رفيقك، ابنهم الأصغر؟ وكم من المرات استضفناهم في مرسيلية؟ أليس كذلك؟ قل لي.

وبما أنها كانت تنتظر جواباً من قبلي، فلقد هززت رأسي موافقاً.

ثم سكتت لترفع قليلاً حقيبتها بغية تقدير وزنها قائلة:

"أعتقد أنها لا تتجاوز الخمسة عشر كيلو؛ ربما أكثر بقليل. بمجمل القول، لا بد أن يتفهموا الوضع...".

كنا مجتمعين إلى جانب التاكسي، ملتصقين بعضنا ببعض، كأننا نريد إطالة تلك اللحظات من التحادث والوحدة. ثم تابعت نحوي:

ـ لا يمكنك أن تتذكر ذلك يا حبيبي. إن المرة الأولى التي صحبتَنا فيها إلى أصدقائنا، كنت طفلاً صغيراً. حقاً إنهم

أصدقاء رائعون. كنا لا نزال في مرسيلية... ولم تكن أختك قد ولدت. إنك مرسيلي المولد؛ أما أختك الصغيرة...فهي لبنانية... طرابلسية، لكن... كلاكما فرنسيان... فرنسيان من أصل لبناني، مثلي، مثل أبيكما.

لفظت تلك الكلمة الأخيرة وهي ترفع حقيبتها لتقدر وزنها من جديد لكن يدها كانت ترتجف.

ـ دعي عنك ذلك يا سيدتي... أنا أحملها... هل تريدين أن نرتب الأمتعة في الصندوق؟ قال السائق ذلك وهو يأخذ الحقيبة.

لكن أمي تابعت حديثها المتكلف والمخترع، شأنها شان من يلقي درساً هاماً للحفظ غيباً، ولتكراره.

لم أعد أسمعها. كان كل ما تقوله يعذبني، ويخيفني، ويقلقني. والحقائب المكدسة في الصندوق المفتوح كأنه شدق وحش. كنا نترقب اللحظة المحتومة.

كنا ذاهبين نحو المجهول.

نحو مكان لا يمكن استشفافه.

لزمن غير محدود، وغير مشروط.

كان ذلك يرعب الطفل الذي كنته ويثير الذعر في نفسي.

ـ إنهم ينتظروننا هناك. ألا تعرفون ذلك؟

حسناً، لم أكن على علم بذلك يا أمي الحبيبة.

رمقتني أختي بنظرة بلهاء.

كانت أمي تحاول أن تُنسينا توتر اللحظة، وتحثنا على أن نحزم أمرنا و... نرحل. لكن ذلك كان فوق طاقتنا، نحن الأطفال. كيف لنا أن ننسى أننا سنترك حديقتنا، وثمارنا، وكلبنا، وأرنبنا، وهرنا، وسلحفاتنا، وأرجوحتنا، ولعبنا... نترك كل شيء... ونهرب!

وذلك بسببك أنت، يا أبي، أليس كذلك؟

رددتُ بتحدٍ:

ـ لكن تلك الحديقة، لن تكون حديقتنا... إنها لهم ؛ أي حديقة الآخرين. ثم هل سيُسكننا جميل وسوزي بملء خاطرهما...؟

ـ قولي لي يا أمي! هل هذا أكيد؟ ألحت أختي وهي تكرر آلياً كلماتي.

بقيت أمي صامتة وهي تحدق في المدى البعيد حيث استمرت أصداء القصف تتناهى إلينا. كنا مجتمعين في فسحة مغلقة. كانت رؤوس النسوة الثلاثة تكاد تتلامس وهن يثرثرن ويتجاذبن أطراف الحديث بمواضيع لا معنى لها كما لو كنَّ يردن تأخير لحظة الفراق.

كانت أختي الصغيرة بعينيها الجاحظتين تحاول متابعة

الحديث كي تدرك فحوى الموضوع، الذي كان يصعب عليها فهمه.

وكانت جدتي هي التي استرجعت قصة جميل وعرضه السخي: ألا وهو المجيء إلى فرنسة والسكن لديه في الطابق الأرضي.

كان حديثها يبعث الطمأنينة في نفسي.

10

لم تكن تلك المرة الأولى التي تتحدث فيها جدتي إلى أمي في هذا الموضوع: لقاؤها بجميل في فرنسة، واهتمامه الودود، ودعمه وتشجيعه. كم من مرة كررت جدتي حديث اللقاء هذا على مسامع أمي، خلال اليومين الأخيرين كي تحررها من مخاوفها.

رأيت أختي تهز يد أمي وهي تكرر سؤالها باكية وقد عيل صبرها مما طمأن قلبي المتألم:

ـ قولي لي يا أمي! هل هذا أكيد؟

ـ أكيد لا شك فيه، يا حبيبتي! أيدت جدتي. إن صديقنا جميل هو الذي ألح كي تتخذ أمك قرارها في الرحيل من لبنان حين هجر أبوك البيت. كم من مرة اقترح عليها أن تقيم في مدينة إكس،في بيته. لأنه لاحظ ما يجري بين والديكما، كما لاحظ الجو العائلي المتزعزع. فأخذ يؤكد أن أمكما ستكون هناك في وضع أفضل من وضعها هنا... وأن بإمكانها أن تحصل على حقوقها المسلوبة. لاشك أنه كان على علم بعلاقة والدكما، زميله، مع امرأة أخرى. لذلك نصحها

بالانفصال وبضرورة الرحيل عارضاً عليها الطابق الأرضي للحديقة، والذي بقي خالياً.

ـ هل فهمتم، المسكن لكم. إنه على مستوى الحديقة... أكدت ذلك والدة جدتي وهي ترمقني بغمزة متواطئة.

أضافت أمي لتطمئننا: ـ فيها كذلك شجرة تين... ومسبح. إنني أعتبر جميلاً أخاً لنا، وسوزي صديقتي المفضلة. أولادهما في مثل سنّكما. لقد لعبتَ طويلاً معهم، يا حبيبي. لا مجال للقلق! أعلنت أمنا وقد لاحظت الحزن على وجوهنا .

لكن مداركي لم تكن تريد قبول أي شيء. "أمّا مسبحهم، وشجرة تينهم، وحديقتهم... فكل ذلك لا يهمني. أريد " بيتي أنا" : أريد أن أبقى هنا، وإن كانت الحرب قائمة. لابد أن تنتهي ذات يوم"، هذا ما كان يتردد في أعماقي.

ـ هيا يا أعزائي! هل سمعتم؟ "لا مجال للقلق" رددت أم جدتي وهي تعطينا بعض الشطائر التي حضّرتها لنا.

لا شيء يُجدي نفعاً. لقد كان الأمر بالنسبة إليَّ أكثر من مخاوف: إنه ألم حقيقي، وقلق لا يمكن تحمله!

والجحيم في جيبي.

ابتعد الكلب الصغير عن أختي وراح يقفز أمامي قفزات متواصلة إلى أن نجح في التعلق بكتفي. فأمسكت به و ضممته إليّ. لاذ بصدري كطفل رضيع. ترى هل أدرك خطورة

اللحظة؟ أو شعر بقلقي المفرط؟ ابتدأت بمداعبته. ومن غريب الأمور أن مجرد لمس وبره الأجعد والحريري قد بعث فيَّ نوعاً من الطمأنينة. أما هو فقد هدأ برفق.

أكدت أمي قائلة: ـ هذا صحيح... فحين جاء جميل وسوزي لزيارتي هنا، في طرابلس، الصيف الماضي، كان ذلك ليشجعاني على مغادرة لبنان، وعلى الابتعاد عن مكان الفضيحة حيث تنتقل يومياً الشائعات والأقاويل. أوصياني بالإقامة عندهما ريثما أجد عملاً أعيش منه. وكما كانا يقولان لي، إنّ وطني الحقيقي هو هناك، في فرنسة حيث أمضيت مراهقتي، وصباي وحصلت على شهادة الدكتوراه، وحيث أستطيع أن أستعيد توازني...

ـ و... حقوقك كامرأة، باللجوء إلى العدالة الفرنسية... أضافت جدة أمي كمن يُذكِّر بشيء ضروري.

ابتسمت النسوة الثلاث ابتسامة تفاهم خفي. لاشك أنه كان يدور في خلدهن السؤال ذاته: "هل كان جميل متأثراً بصديقه، المتعدد الزوجات؟ وهل كان هذا الأخير (وأقصد أنت يا أبي) الذي حرضته ليحدث أمي في هذا الموضوع وليشجعها على السفر ولتسهيل الأمور لها كي ترحل وتدعك في سلام... وقد تركَت لك البيت؟ وهكذا لا أحد يزعجك في حياتك الجديدة وأنت ابن الستين تُطلق أم أطفالك لتصبح عريساً جديداً في مرحلة الطلاق؟"

كانت أنظارهن تتكلم أما شفاههن فبقيت مُطبقة.

كان رحيلنا يلائمك حتماً أحسن ملاءمة، يا أبي. لذا لم تتصل بنا طوال ثلاثين يوماً من القصف المستمر؛ لمجرد أن تطمئن علينا. لقد تواريت عن الأنظار على الرغم من أن عملك لا يبعد كيلومتراً عنا!

ألم تقلق علينا، يا أبي؟ ألم ينتبْك الندم؟ أم إنك كنت تنتظر أن نرحل بصمت فتتخلص منا؟

غريب أنت! فمنذ عدة سنوات منعتنا من السفر حين أرادت أمي أن تترك البيت وتسافر إلى فرنسة بعد أن اكتشفت خياناتك وعلاقتك بتلك المرأة الشريرة. في ذاك اليوم، تغيرت نيّاتك، وكذلك مخططك واستراتيجيتك... التي كنا نجهلها.

في تلك الفترة، لم تتوقف قط إزعاجاتك الملحة وأعمالك العنيفة. تذكر ذلك!

11

بعد اكتشاف خياناتك الشهيرة التي كنتَ تفخر بعرضها على الملأ، أرادت أمي أن تأخذنا ونرحل إلى فرنسة لنهرب من هذا الوضع المهين الذي فرضته علينا: وضع شائن ومنحط بالنسبة إليك وإلينا أيضاً، في نظر محيطنا.

لكنك رحت تُعرقل السفر. ربما لم يكن رحيلنا حينذاك يلائمك. كنت تحتاج إلى أمي لتضايقها وتزعجها وتمارس عليها تصرفاتك المكبوتة وسلوكك العدواني.

عارضت مشروع سفرنا. وضعت لدى الشرطة حظر خروج من الأراضي اللبنانية. وهذاالحظر يتعلق بالأطفال، أي أنا وأختي، لكنه لا يشمل أمي. كان ذلك يعني أنها تستطيع الرحيل، لكن من دوننا نحن!

فما كان منها إلّا أن تخلت مرغمة عن مشروعنا الذي كان فيه خلاصنا. كانت قد أقسمت "لن أذهب بدون أولادي مطلقاً". كانت مستعدة أن تقبل عنفك وإهاناتك، الجسدية والأخلاقية التي كنتَ تجيد تنويعها.

من أين كانت تأتيك كل تلك القوة على الابتكار؟

هل يمكنك أن تتصور أمنا من دوننا، ونحن من دونها؟ نحن حياتها، وروحها وهدف وجودها؟

لقد عرفت كيف تلعب ورقتك بمهارة، يا أبي...! راهنت على ألمها، وأصبت نقطة ضعفها حين هددتها بحرمانها من أولادها باسم القوانين الدينية متذرعاً بامتيازاتك الذكرية.

كانت تقاتل بيأس لتحتفظ بنا. كنت تتلذذ بإفزاعها، مستغلاً سلطتك كرجل، تلك السلطة التي تعطيك الحق في أن تقتلعنا منها، وبالتالي، تجعلنا نخشاك. إلّا أنك كنت تعرف حق المعرفة، أننا، نحن، أولادك، لن نقبل مطلقاً أن نعيش معك. أنت الذي خنتنا، وتخليت عنا، وحرمتنا من الدفع الأعظم روعة، والأشد دعماً في الحياة ألا وهو عاطفة الأبوة... أن يكون للطفل أب...

" أن يكون للطفل أب ": هل تعرف، يا أبي، ماذا يعني ذلك، أنت الذي بقيت طويلاً في ظل والدك حتى موته؟ إننا نشعر الآن، بأنه لم يعد لنا أب وإن كان حياً. لقد فقدناك، يا أبي، قلباً وروحاً، منذ وقوعك في فخ تلك المرأة القاسية التي اقتلعتك منا، وقد "انتقلت إلى بيتها بكل غباء" !

فبسبب حظر السفر هذا، لم تكن تستطيع أمّنا إذن أن تتحرك لكنها كانت تأمل شيئاً واحداً، تداعب ذاك الأمل في كل طالع شمس: تترقب الحظ وتنتظر فرصة مناسبة وملائمة

تجعل الهرب ممكناً. بينما تواصل أنت لعبتك في المضايقة الوحشية والتهديدات الشريرة.

إنّ الجميع قد أدركوا ذلك، حتى جارنا، الضابط المقدم حين التقى يوماً بجدتي في الطريق، وباسم الصداقة التي تربطهما، فلقد حذرها من مناوراتك: إن حظرك لرحيلنا كان "للإمساك" بأمي أكثر منه للسيطرة علينا.

لقد " كانت تحت رحمتك " يا أبي! أمي الحبيبة...

ولم يكن أحد يفهم لماذا تتحامل عليها بتلك القسوة.

كأن قوى الشر كانت تحركك.

كنت حاقداً عليها!

لماذا؟

لأنها كانت تشكل عائقاً أمام نزواتك؟

حين كان يسألك سائل عن سبب موقفك البغيض نحوها، لم تكن تستطيع إعطاء أي سبب يبرر سلوكك البشع.

باستثناء سبب لم تكن تبوحُ به: إنها تضايقك لأن لك عشيقة!

كنت تريد على حد قول المثل الشائع "أن تحصل على السمن وثمن السمن معاً "يا أبي: كنت تريد أن تترك البيت، وأن تكون حراً بأفعالك، وسيد نزواتك وأن تفخر بها، وتحتفظ بامرأتك الجديدة وتحتفظ بنا، وتمارس سلطتك وأن يكون في متناول يدك ضحية، وهي أمنا، التي كانت تتيح لك أن تطلق عدوانيتك عليها، وأن تستغلها بكل حرية ذكرية

تتوافر لك. أي أنك كنت تريد أن تسيطر علينا جميعاً، وأنت حر، وبعيد وغائب.

وكنت تقوم بملاحقات قضائية وأنت تقدم شهادات زور.

بقينا إذن، في البلد نتحمل أعمالك العنيفة وإهاناتك. كنت تعلم حق العلم أنّ أمّنا لن ترحل البتة من دوننا؛ وأنها تنتظر نعمة من الله... أو معجزة ما تحررها منك. لقد طال انتظارنا كما طال تحملنا سنوات كثيرة كنت في أثنائها تمارس لعبتك القذرة.

"سيُكافأ الأبرار في هذه الحياة"، طالما سمعت هذه الجملة تُردَّد على مسمعي. وها هي أمي تتلقى مكافأتها: الحرب بين إسرائيل وحزب الله!

إنها المعجزة التي كانت النور، كضربة سحر. هربنا؛ بكل بساطة. ويا لخيبة أملك، لم تعد تستطيع أن تمسك بنا.

لكن... أصحيح أنك كنت تريد أن تمسك بنا؟

أن تمنعنا من السفر.

كنت تقول ذلك من دون أن تعنيه.

ولماذا تمنعنا بينما كنت تفكر في التخلص منا كي تجد ثانية حريتك الزانية؟

12

إن يوم الرحيل والهرب هذا قد غيرنا، وجعلنا ننضج قبل الأوان، أنا وأختي الصغيرة. والطفلان اللذان كانا بعيدين عن سن المراهقة، قد أصبحا فجأة كائنين صغيرين يافعين يتساءلان عن مشاكل الوجود وعن العلاقات الإنسانية.

سألتني أختي الصغيرة ونحن واقفون أمام صندوق السيارة المفتوح:

ـ ألن يأتي بابا؟

ـ أيتها البلهاء، إذن لم تفهمي شيئاً

ـ هل يتركنا بابا نهائياً؟

ـ أجل.

ـ لن نراه ثانية...؟

ـ أعتقد... أجل... لن نراه بعد اليوم...

ـ ربما يأتي إلينا في فرنسة... إننا أولاده...

ـ ربما...

ـ ربما؟

بقيت منذهلاً.

كنت أنا أيضاً أتساءل، لكن عما ينتظرنا من مفاجآت عجيبة وغامضة.

رتب السائق أمتعتنا في صندوق المرسيدس العتيقة. وراح يطرح عليَّ، بشيء من الفضول، بعض الأسئلة عن العلاقات العائلية وعن الرحيل، كما لو كنت يافعاً. حدثني عن الحرب وويلاتها وهو يجهل أنني لم أنهِ بعد العاشرة من عمري. لاشك أنه لاحظ نضجي المبكر (وهذا يعود إلى المحن التي قاسيناها منك، يا أبي!). قال لجدتي إن حزني قد امتزج بالحكمة وبالاستسلام، وهذا ما ندر وجوده على وجوه الأولاد الذين عرفهم وهم في مثل سني.

كان يتابع نظري المثبت على حقائبنا وقد اصطفت في الصندوق. كنت قد قلت له: إننا نرحل لكن الحزن العميق يعصرنا؛ أما حقائبنا التي في الصندوق فتذكرني بتوابيت الموتى.

أطلق ضحكة صغيرة وهو يتفحصني طويلاً.

لقد أدرك كل شيء.

قامت أمي، تساعدها جدتي، بالعملية الأشد مشقة والأعظم حزناً وهي إقفال بوابة البيت الأبيض الكبير بعدة دورات من المفتاح.

إنه باب ماضينا وباب أيامنا المقبلة.

إنه باب مصيرنا.

هل سيُغلق إلى الأبد؟

ونهائياً؟

من يستطيع التنبؤ بذلك؟

نحن نرحل نحو مرافئ غامضة.

نقفز في المجهول.

أصابني الدوار من ذلك.

حين رأى السائق المرأتين تجهدان بمجموعة المفاتيح العملاقة، أسرع إلى مساعدتهما. حاولوا إغلاق البوابة الكبيرة الحديدية بالقفل. وهي عملية نادراً ما حدثت، اللهم إلّا في حال الغيابات الطويلة، أي سفر طويل على سبيل المثال. فمنذ إقامتنا في هذا البيت، ما يقرب من الثماني سنوات، لم تجرِ عملية الإقفال هذه.

أدارت أمي المفتاح عدة دورات في أول قفل، وكذلك عدة دورات في قفل آخر.إثر كل حركة، كانت تنبعث ضجة مدوية من الحديد. كان ذلك شيئاً أقرب إلى السريالية، إلى الغرابة كما يحدث في الأفلام البوليسية، أو أفلام الرعب. كانت ثمة آثار سماعية لامعقولة ترافق يد أمي وتمزق قلبي.

كأنها أصوات، أجل أصوات حقيقية.

كانت كل دورة قفل طعنة سكين في صدري وجرحاً

جديداً في لحمي. كان المفتاح الكبير يصر صريراً عالياً؛ وهو يُحدثني، ويناديني ويبعث القشعريرة في جسمي. كان هذا المفتاح، هو أيضاً يصرخ: حذارِ، أو الشفقة، أو الرحمة، لم أعد أعرف، لكنه كان يصرخ كشخص يُقتل.

كنت على وشك البكاء.

ثم جاءت الحركة الأخيرة: تثبيت القفل بشكل متين.

مرّرت أمي سلسلة معدنية ثقيلة عبر إطارات واجهتي البوابة، ووضعت القفل وضغطت بقوة. تساقطت لآلئ دموع على خديها.

تساءلت إن كانت تلك الدموع بسبب الجهد الذي بذلته أو بسبب حزن عظيم كان يكتنفها...

سُمع صوت حديدي أخير، كثيف وجاف كأنه دقة ساعة عملاقة. حان وقت الرحيل.

أدركت، فجأة، أننا كنا خارج جدران منزلنا: أخرجنا عنوة، طُردنا من هذا المكان الأمين وقد أصبح الآن عدوانياً؛ انفصلنا عما شكل طفولتنا، حين لم تكن مراهقتنا قد بدأت.

تقدمنا نحو التاكسي، الواحد خلف الآخر، نجر أقدامنا بتثاقل كجيش مهزوم. لأول مرة في حياتي قلت: الوداع لكل

ما كان لي. شعرت بأنني قد ألقي بي خارجاً، وكنت أفكر حقاً بذلك.

أدركت في تلك اللحظة ماذا يعني الفراق، والطرد، والوداع.

الوداع الأبدي.

لقد علّمتنا إياه، يا أبي، أحسن تعليم!

13

ضمت جدتي بقوة، الكلب الصغير الذي حاول الهرب للحاق بنا. بينما أمسكت جدة والدتي قفص الأرنب. كان الحيوان الصغير يتحرك كمجنون داخل سجنه، ويرمقنا بنظرات شرسة وراء قضبانه. كانت أذناه تتدليان برخاوة. ففي أقل من ساعة، ستؤول إلى غيرنا تلك الحيوانات الصغيرة التي كانت رفيقتنا، وصديقتنا منذ سنوات. ستعطي جدتي الكلب إلى أخيها، أي خال والدتي والذي كان، على عكسك يا أبي، يحب تلك الحيوانات الوفية.

لقد كان جلياً، حزن ميكي وقد اغرورقت عيناه بالدموع. توقفت نظراته الباكية على حركاتنا. كان يصغي وهو يرتجف إلى الكلمات العذبة التي كنا نحرص على أن نسمعه إياها قبل رحيلنا.

فالكلمات الرقيقة تهدئ وتشجع وتريح. إنها تبعث فينا دفقة من الحب العميق. إنك، يا أبي، لم تعرف قط كيف تلفظ مثل هذه الكلمات، أو تحس مشاعر من هذا النوع.

يا للغرابة، أليس كذلك؟

حين يكون الإنسان شحيحاً، ففي كل تصرفاته!

إلَّا أن الكلب الصغير كان في أقصى التعاسة، حين رآنا نصعد إلى التاكسي. كان نظره شاخصاً نحونا وهو يطلق صوت \أو\ه فتنفذ صرخته إلى قلبي لتمزقه.

تلك النظرة، وتلك الصرخات هي التي تراود لياليَّ في قارتي الجديدة. وغالباً ما تُعاودني في شكل أحلام أو كوابيس...

ففي وثبة أخيرة لنضاله في البقاء، تخلص ميكي من ضمة جدتي وركض نحونا. قفز داخل السيارة التي كان بابها ما زال مفتوحاً. تكور ملتصقاً بي، وقد أخفى وجهه في صدري. ثم تعلق بكتفي، كما يتعلق المرء بآخر فرصة له في النجاة.

لاأزال أشعر حتى هذه اللحظة، بأظفاره في لحمي، عبر قماش قميصي القطني. كان يريد أن يتعلق. وكانت تلك الحركة تعبر عن تعلقه بالحياة.

ركضت جدتي لتنتزعه مني. استرجَعَته بضمة قوية ثم صَفَقت علينا باب السيارة التي انطلقت كإعصار. فصلتنا عنه غيمة من الغبار، كما لو أن ستاراً قد أسدِل.

كانت تلك النهاية!

أو البداية.

بداية سفرنا عبر الظلام.

لاأزال أسمع باستمرار نحيبه كأنه حشرجات، وكذلك نباحه اليائس والشاكي. ابتعدت سيارتنا لكنني بقيت أسمعه.

لاأزال أتخيله وهو يحاول جاهداً، وللمرة الأخيرة، التخلص من الذراعين اللتين كانتا تحبسانه.

نجحت محاولته.

يا له من درس جميل نتعلمه وهو أن يجرب المرء حظه دائماً.

فمن يدري!

رأيته يركض يائساً ليلحق بسيارتنا، وقد التصقت بطنه بالأرض، وتداخلت قوائمه، أما أذناه فلقد استقامتا عالياً في الهواء، من دون أن يتذمر، هذه المرة، ولا أن ينبح.

كأن الأمل يولد في الصمت.

وما لبث أن توقف عن الحركة وسط الشارع وهو يرى السيارة تبتعد كمن تلقى ضربة على رأسه، فمكث مُسَمَّراً في مكانه، حيث لم يعد باستطاعته الوصول إلينا أو اللحاق بنا.

في المفترق! حيث تتشعب الطرق، وتتغير المواقف، ويصبح اليقين أقرب إلى الاحتمال. دخلت سيارتنا في منعطف حادٍ. سمعت حينذاك أزيزاً جافاً لمكابح هرئة قليلاً. وإذ ميكي يطأطئ رأسه، ويجر قدميه، ليعود أدراجه. إنه على وشك أن يسلك منعطفاً جديداً في حياته وعلى قدر من الأهمية.

لقد فهم كل شيء، هذا الكلب الصغير: إن الفراق حاصل لا مفر منه...

كان ذلك بحكم البداهة.

خضع للأمر الواقع وهو يغوص في الصمت.

لم يعد لديه حيلة فاستسلم!

قطعنا الجانب الآخر من الهضبة. ولم يعد المنعطف الكوعي واضحاً تماماً ثم اختفى.

لم أكن أعرف لماذا انبثقت صورتك بين تساؤلاتي المؤلمة بينما كانت سيارتنا تغير طريقها.

لا شك أنه المنعطف الذي جعلني أفكر فيك؛ في "منعطفك " البالغ مائة وثمانين درجة والذي سلكته منذ عدة سنين؛ إلى ارتداداتك المحيرة، والباعثة على اليأس؛ إلى مواورباتك، وحيلك، ولفّاتك.

كنت أفكر، في الوقت ذاته، في ميكي، كلبنا الصغير، بوفائه وتعلقه العميق الذي برهن عليه، هذا التعلق الذي لا حدود له. كل ذلك قد بعث في نفسي الثقة بأنه لاتزال في هذا العالم نفوس نبيلة: ألا وهي نفوس الكلاب!

كم كان بودي أن أحتفظ بميكي، وأصحبه معي في سفرنا المُغَامِر. خصوصاً أنك لم تكن هنا، أنت، الذي تكره الكلاب.

إذن لم يكن هناك مشكلة.

ربما كانت أمي تقبل لو ألححت في طلبي. لكنني كنت أعرف أن علينا أولاً أن نتخلص بجلدنا.

ثم كنت أتخيل بعض الشيء جوابها: لقد رُتِب هربنا من دونه. لم يكن مكانه على المركب الفرنسي الذي كان في انتظارنا.

لم يكن ميكي في حاجة إلى الهرب مثلنا.
أو العودة إلى وطن ما.
كان عليه إذن أن يبقى ؛ وأن ينفصل عنا.
من الآن فصاعداً، تستغني حياته ككلب عنّا، ستستمر بعيداً عنا، مستقلة عن حياتنا الجديدة.

14

أسندت جبيني إلى زجاج السيارة البارد ورحت أنظر مواربة. كانت الشمس تبهرني، وشهر آب يبث كل حرارته. حرارة لبنانية، طرابلسية، فيها بعض الرطوبة كما هي الحال دائماً في أيام الصيف.

لحسن الحظ، كانت السيارة مكيفة، والنوافذ مغلقة، ولم يكن يُسمع صدى القصف إلَّا بشكل خفيف.

ـ سنأخذ الطريق الساحلي حتى مدينة "شكّا" فقط. ثُم سنسلك طريقاً آخر كي ننعطف خلف معمل الاسمنت. إن الطيران الاسرائيلي يقصف باستمرار طرقات السيارات العريضة... فلنتكل عليه. إنه هو وحده القادر على نجاتنا...

جعلتني ملاحظة سائقنا أنتفض.

رفعت رأسي. حقاً، إنه هو الله، الذي أنقذنا حين أرسل إلى هذا البلد تلك الحرب غير المتوقعة، هذا ما كنت أفكر فيه، أنا الصبي، برأسي الصغير.

سلكنا الطريق كما كان مقرراً.

ثم وجدنا أنفسنا فجأة أمام البحر، البالغ الزرقة، والكامل الهدوء.

كما تخرج حورية من الماء، انبثق أمام ناظرنا مجمع السباحة الذي كنا نرتاده كي تتتابع بعد ذلك ببطء الوحدات السكنية الخمس. ظهر في آخر مجمع بيتنا البحري(البنغالو) الذي كنتَ قد اشتريته لنا حين وصولنا إلى هذا البلد، حيث أمضينا أسعد أوقات طفولتنا. العطل الصيفية الطويلة، والعطل الربيعية، كانت تجري هناك، على شاطئ هذا البحر الذي يغمرنا، وفي هذا البيت الصغير الذي فرشته أمي بذوق أنيق.

هذا البنغالو الذي حرمتنا منه سنوات طويلة، قد أجَّرتَه هذا الصيف لغرباء. أتلك، يا أبي، رغبتك في الثأر، وفي المجافاة والإذلال؟ أو كل ذلك معاً؟

وهكذا، فإن الأشهر الحارة الثلاثة وهي أيار، وحزيران، وتموز التي انقضت، قد أمضيناها في البيت بعيداً عن بحرنا.

البحر، والشاطئ، وتسلياتنا... أتذكر ذلك؟

كنت تسخر من ذلك تمام السخرية.

أما السباحة، فإن أمنا هي التي علمتنا إياها. كان النوم في البيت الساحلي يزعجك. كنت تقول إنك لا تحب البقاء طويلاً على شاطئ البحر بسبب الرطوبة. لكن منزلنا لم يكن بعيداً عن البحر ورطوبته.

كانت أمي تصدقك. لقد صدقتك دائماً. لم تكن تتصور قط أنك قادر على كل تلك الأكاذيب، والحيل. كان مظهرك كطبيب "دمث" وخجول يبعد عنك كل انطباع سيئ، وكل فكرة شريرة.

تفحصنا بحزن الشاطئ الرملي المحَظَّر؛ ثم البيت الساحلي الذي لم يعد لنا الحق في دخوله، وقد سكنه غرباء. إنهم مستأجروك!

هل كنت إذن في حاجة إلى مزيد من المال لتضخم ملايينك وعملاتك الصعبة؟ أم كان ذلك لمجرد معاقبة أمي باستخدامنا؟

لقد اتصلت بك هاتفياً راجياً إياك أن تتركه لنا هذا الصيف.

لكنك صممت أذنيك عن نداءاتنا وحاجاتنا.

كنت تريد أن تقطعنا عن أمنا، وعن بحرنا، أن تقتلعنا منهما!

فكيف أسامحك والحالة هذه؟

قرصتني أختي والدمعة في عينها لتلفت انتباهي وتذكرني بفعلتك الاضطهادية قائلة:

ـ انظر، إنه البحر! بحرنا(2)!

لفظت أختي ذلك على طريقة إنسان غريب عن العربية، عن لغتنا، التي هي، مع ذلك، لغة الأم والأب. لكن تعلم هذه اللغة كان عسيراً علينا لأننا كنا نتحدث الفرنسية في البيت. ففي المدرسة الفرنسية ـ اللبنانية التي كنا نذهب إليها

---

(2) وردت هاتان الكلمتان في النص بالعربية ولكن بأحرف لاتينية (المترجمة).

منذ وصولنا إلى البلد، كان في البرنامج عدة ساعات من دروس العربية. لكننا لم نكن مؤهلين جيداً لذلك.

هزتني أختي قائلة:

ـ البحر، أقول لك البحر. ألا تسمع؟ انظر إلى هؤلاء الناس على شرفتنا. انظر! هناك كثير من الأطفال. ونحن؟

ـ نحن... نحن راحلون. لسنا في حاجة إلى البيت...

ـ أي أننا لن نسبح بعد الآن على الإطلاق؟

ـ هنا؟ كلا! مطلقاً بعد الآن...

سقطت دمعتها على شفتها. فالتقطتها بطرف لسانها ثم مسحت عينيها بظهر يدها .

ونظرت... إلى "بحرنا" وإلى بيتنا الساحلي المحتل، وقد أصبح بيت الآخرين. كان على الشرفة أغراب بلباس السباحة يدخنون سكائرهم بكل أمان، وقد راحوا ينظرون إلى السماء.

هل سيعود القصف ثانية؟

كان آخرون يخرجون من الماء ويأتون ليجلسوا على مقاعد طويلة للتمدد، إنها مقاعدنا!

كانت دراجاتنا مصفوفة على الحائط، جاهزة للاستعمال، من الأطفال "الغرباء". وبالفعل، فلقد جاء طفل في الثامنة تقريباً، في سن أختي، ليلهو بها.

يا للحقد ويا للبغضاء اللذين أحسستهما نحوك، منذ ذاك الحين، يا أبي! كيف تجرأ قلبك كأب على قسوة من هذا النوع؟ وعلى خيانة من هذا الضرب؟

15

ثم اختفى كل شيء بسرعة، كصورة على شاشة كبيرة أطفئ نورها؛ وكما يُمحى خط من الطبشور على لوح أسود. وضعت أختي رأسها في قعر ذراعها المثني. راحت تبكي.

وفي الوقت الذي كانت تبذل فيه أمنا جهدها لتخفف حزننا، كان حقدي نحوك يتضاعف.

ضمتنا إليها وراحت تقبّل رؤوسنا.

كانت سيارتنا تنحدر على طرقات غير معبدة، وشبه خالية. كنا نرى عن بعد جسوراً محطمة، ومصانع خربة، وصواريخ تقطع السماء: إن الهجوم الذي قامت به إسرائيل كان ذا ضخامة لا يمكن تصورها، كما كان رد حزب الله أعظم. والانتقام هائل!

إن المشهد الموحش قد أخرج أختي من حزنها. فنسيت حينذاك البيت الساحلي المحتل وكذلك المحتلّين السعداء.

كان السائق ثرثاراً بعض الشيء، يتحدث بلا توقف. كانت أختي تصغي إليه، وأنا كذلك. لم نكن نفقه شيئاً من حديثه.

كان الطريق خطراً. أجل! لكن أخطار العالم كافة لم

تستطع أن تُهدئ سخطي عليك، يا أبي! كنت أفكر بشدة بسلوكك التعسفي، وبمساعيك لزعزعتنا بمجرد تحطيم أمي.

إنني أتذكر، رغماً عني، تمثيلياتك تلك الأيام كأنك على خشبة مسرح تؤدي مناوشاتك، الأخلاقية منها والجسدية. أستطيع أن أذكر لك منها أكواماً بقيت محفورة في ذاكرتي وأثرت فيَّ بقسوة.

كان يحدث ذلك أيام الآحاد بشكل خاص إذ كنت تختلق الذرائع لتتركنا وحدنا مع أمنا، بعد أن تكون قد افتعلت شجاراً.

حدث في يوم أحد من شهر تموز (أتذكر ذلك؟) أن استيقظنا، أنا وأختي، على صوت صرير حاد من باب المدخل الذي كانت مفاصله تئزّ. لا بد أن تلك المفاصل الصدئة قد أحدثت حين فتحِها وإغلاقِها صريراً حاداً ومزعجاً يقشعر له البدن: صرير حاد أو أزيز مُصِّم؟ لا أدري: كيف لطفل في العاشرة أن يعي الفرق. كان على أمي أن تحضر مصلح أقفال ليزيت مفاصل بوابة بيتنا الضخم (فيلّا من ثلاثة طوابق!) لكن المصائب التي راحت تنهال على رأسها، الواحدة تلو الأخرى، لم تكن تسمح لها، أو لم تكن تشجعها على القيام بأي شيء كان.

كانت تهديداتك بطلاقها وبأخذنا منها، تتركها خائرة القوى.

كان ذلك شعارك الذي تطلقه جزافاً.

أما المشهد (أي الشجار المفتعل) فلم يكن بالغريب عنا على الإطلاق، لأنه كان غالباً ما يتكرر.

كنت تمر أمامنا، قبل خروجك، فتنظر إلى أمي بازدراء مقطباً حاجبيك، تتمتم بعض الإهانات، وتضرب الكلب بركلة من رجلك، إلخ. وما كان يثير الغرابة والعجب هو سبب تصرفك هكذا.

كانت أمي، في البدء، تشعر بالذنب. ثم أدركت الوضع. وحتى أنا، فعلى الرغم من صغر سني، استطعت أن أفهم "أسبابك" القاسية ومرماها. لم نعد نجهل أن علاقاتك الغرامية بالمرأة الشريرة هي التي غيرتك!

فشعوذاتها ومكايدها، بالإضافة إلى أفعالك، كانت تتركنا منهارين.

كان صرير الباب الضخم الذي كنت تحاول صفقه حين خروجك، قد انبثق كصراخ أجش في الفراغ. كنت تتقدم بخطوات سريعة نحو سيارتك وأنت تلعن أمي وتلعن الكلب كذلك. كان ميكي يصرخ ألماً مكشراً عن أنيابه لأنك عاملته بقسوة.

كان بودي أن أركض خلفك لأبقيك، ولأتوسل إليك (جاثياً على قدميَّ، كما كانت تفعل أختي الصغيرة أثناء مشاحناتك المخترعة مع أمي!) ولكي أستحلفك بالبقاء.

لكنك كنت قد انطلقت بسرعة فائقة أصابتني باليأس. ثم ما كان يمنعني من القيام بذلك هو نوع من الأنفة (وقد

اختلطت بالازدراء، يا أبي!). إن المشاحنات التي لا تُفَسَّر والتي كنت أعيشها قد علمتني أن أطرح على نفسي كثيراً من التساؤلات عنك.

هل من الواجب أن نحب من يسيء إلينا؟

وإن كان هذا المسيء أبانا؟

لقد جعلني ذلك أفكر بميكي، كلبنا. كان يستجدي منك عبثاً بادرة ود، مداعبة، نظرة. وكنت دائماً تأباها عليه! كان يخشاك، كنت تبعث فيه القلق والخوف. فكان يهرب منك حين تعود من عملك. ويختبئ تحت كرسي أو خلف مقعد كي يتجنب ركلات قدمك. لقد كنت فعلاً تجيد تصويبها نحوه!

في ذاك اليوم، كانت أختي الصغيرة قد فقدت سناً راضعة. وضعتها بعناية في علبة حلي صغيرة. كانت عبارة عن علبة وردية اللون اشترتها لها أمي حين بدأت سنها تتحرك. هي أيضاً، ركضَتْ خلفك، يا أبي، لتريك سنها. ولكي تؤكد لها أن الفأرة الصغيرة قد مرت أثناء نومها وأنها دست هدية تحت وسادتها. كلنا يعرف قصة سقوط أولى أسنان الحليب.

لكن طفلة الأعوام السبعة، والفخورة بأنها استطاعت أن تقلع سنها بنفسها، لم تفهم ما كان يحدث خلف الباب. رأتك وقد خرجتَ بسرعة بالغة متذمراً شاتماً من دون أن تترك لها أية فرصة للحاق بك.

خاب أملها؛ شعرت بالحرمان. كانت علبتها الوردية بيد،

والكلب الصغير(الذي كنت تكرهه والذي يخاف منك) على ذراعها. بقيت واقفة على العشب، مذهولة ومتألمة. لكن أمي أسرعت نحوها وضمتها بين ذراعيها. خرجنا إليهما في الحديقة لنجعل الطفلة تبتسم لأنها كانت تبكي بدموع ساخنة. لكن أختي بقيت حزينة لا عزاء لها.

16

بدأت جدتي حينذاك تروي حكاية قصيرة لتلهي أختي. بدت كأنها تقصّها على أمي بينما كانت توجهها إلى أختي. توقفت هذه فجأة عن البكاء لتصيخ السمع باهتمام:

ـ لاأزال أذكر يوم برزت لها أول سن ثَقَبَت لثتها البيضاء... كأن ذلك قد حدث البارحة! وها هي أول سن راضعة تسقط لتفسح مكاناً لسن أعقل منها، وأكثر ديمومة. لفظت ذلك جدتي بإيماءة لطيفة.

رفعت أختي رأسها وفتحت عينين واسعتين تبرقان بالدموع:

ـ أنا؟ تتحدثين عني أنا؟

ـ أجل أنت يا عزيزتي. أنت! عنكِ أتحدث... حين كنت طفلة رضيعة! كنت طفلة جميلة جداً!

ابتسمت أختي راضية. فاقترحت عليها أمي الدخول إلى البيت. أخذتها من يدها وتوجهت نحو غرفتها:

ـ هيا لنرى إن كانت الفأرة الصغيرة قد مرت هذه الليلة...

بعد عدة لحظات، ظهرت أختي الصغيرة ثانية بوجه

مضيء. كانت ترفع دباً من الصوف يلمع من جدَّته. ركضت نحوي وهي تهزه في الهواء. روت بصوت رخيم قائلة:

ـ إنه هدية الفأرة الصغيرة! انظرا لقد دسته لي تحت وسادتي...

في ذاك اليوم، بينما كان حقدي نحوك يتزايد، كان إعجابي يكبر أمام تلك المرأة الشابة الشجاعة، أمي. كنت أتساءل كيف استطاعت أن ترتب لعبة الفأرة الصغيرة والدب؛ بأية طريقة راعت الباكية وقد اخترعت لها حكاية وحلماً. إن محبتي لها في تلك اللحظة قد تحولت إلى إعجاب، واحترام وتقديس لا يمكن تقديره.

منْ غير الأم يستطيع أن يبتكر هذا اللعب، هذه البادرة المفعمة بالحنان العطوف؟ وأن يفكر عفوياً بأن يخلق الفرح في قلب طفلة حزينة؟

إن تقديس أمي هو بالنسبة إليَّ أقل هدية أستطيع أن أقدمها إلى من تعطي ذاتها من دون أن تشكو البتة، هذا ما كان يفكر فيه رأسي الصغير كطفل واعٍ.

لا شيء في الدنيا يمكن أن يساوي قلب أم!

أين كان إذن قلبك، يا أبي، حين كانت أختي الصغيرة تطلبك وهي في أمس الحاجة إليك؟

إلَّا أن الابتسامة الطفلية لم تدم طويلاً. فلقد تكدرت فجأة السحنة البريئة. قالت وهي تفتح العلبة الوردية حيث دفنت سنها:

ـ أريد أن أريها لأبي.

حاولت أمي تهدئتها وإلهاءها. لكن المُقَطِبة ألحت وهي تتأفف، وقد ثبتت نظرها على العلبة الصغيرة الوردية:

ـ أريد أبي!

ـ لكنه ذهب، يا ملاكي!

عبرت خاطرة في ذهنها. فسألت:

ـ ألن يعود أبي هذا المساء؟

لم تحر أمي جواباً. لم تكن تعرف كيف تشرح الأمر لطفلة قلعت تواً أول سن راضعة لها.

تلعثمت أمي وهي تتمتم:

ـ لا أدري...

ـ إذن، لن يعود مطلقاً؟ بعد الآن؟ قولي لي. لفظت ذلك، وهي تهزها من مرفقها.

ـ لا أحد يعرف، يا حبيبتي!

ـ ما عداه، هو؟

ـ أجل! باستثنائه هو!

ـ هل يمكنني أن أسأله عن ذلك...؟

ـ اسأليه...

ـ لكن متى؟ وكيف؟ ما دام لن يرجع بتاتاً؟

راحت تضرب الأرض بقدميها بشدة وهي تبكي.

مددت لها هاتف والدتي الجوّال. فركَّبت رقمك عشر مرات. كان هاتفك مغلقاً دائماً. لقد فهمنا لعبتك. لم تكن تريد أن تجيب عن نداءاتنا.

17

بعد رحيلك، جلسنا كلنا حزينين كمن ينتظر تعازيَ لن تأتي البتة؛ كل واحد منا أمام الآخر، يحدق في فسحة الحديقة الرائعة التي غادرْتَها، وقد اخضرتْ ثانية إثر سقوط آخر الأمطار.

كانت أمي تحاول أن تحبس دموعها التي غشت عينيها. وأختي وضعت رأسها على كتفها وهي تضم الكلب بقوة، والدب و... العلبة الوردية. كانت تريد أن تُريك سنها الساقطة، وقد احتفظت بالمفاجأة لك، يا أبي. لكنك كنت قد ذهبت، ذاك الأحد، وقد تركتنا مع حزننا وحيدين، للقاء تلك المرأة التي سرقت أبانا.

لم يكن أحد يعلم حينذاك أنك قد أبرمت معها (ربما مرغماً) عقد زواج سريّاً. لم يُعرف ذلك إلّا بعد زمن طويل. قبل عدة أيام من هربنا إلى فرنسة.

فأنت مسلم ويحق لك أربع زوجات. فلماذا لا تستفيد من تلك الميزة؟ هذا ما كان يقوله سوء نيتك.

لعقد زواج سري، يكفي شاهدان فقط، بحضور شيخ يسألك إن كنت تريدها، تلك المرأة. فتجيب نعم. ثم توقع. وينتهي الأمر.

لا شيء أسهل من ذلك!

وتستطيع أن ترجع أم أطفالك إلى أهلها، نهائياً. فالطلاق بيدك!

كان ذلك حلمك. المخطط الذي كنت تسعى إلى تنفيذه.

فخفية عن أمي، وعن الجمهورية الفرنسية التي علمتك، كنت ذاك الفرنسي المتعدد الزوجات الذي خرق القوانين المدنية وضرب بقيمها عرض الحائط.

زواج سري.

شأنه شأن العهر وشأن التضليل.

أنت تخدع ذوي النيّات الحسنة.

إنه ذروة الخبث والرياء؛ إنه الخزي بعينه.

إن دينك يسمح لك (بل ويعدك) بتلك السرية فأحسنت استغلالها.

إن هذا يثير السخط والنقمة، وهو سلوك منحط، يا أبي!

لقد انتظرناك ذاك المساء لكنك لم تعد. مرضت أختي إثر ذلك. وبقيت سنها مخبأة في العلبة الصغيرة، وهي تأمل عودتك. لقد انتهى بها الأمر أن تدفن أملها بالقرب من سنها!

بقيت طريحة الفراش طوال أسبوع!

تلك ذكريات عديدة ومريرة تراودني. إنها تطوقني ليلاً وتهاجمني نهاراً، وتأتي للقائي في قعر صحن حسائي مساءً.

إنها ذكريات نحملها معنا أينما كنا. فتصبح جزءاً مكوناً لذاتنا، ولحاضرنا، ولذاكرتنا التي هي مستودع طبيعي لكل محفوظاتنا.

اليوم، بلغت الخامسة عشرة. أشعر بأنني يتيم، يا أبي!

وهأنذا أسَلِم إلى النسيان صورة الأب الذي وددت أن يكون أبي.

لقد كنتُ مستعداً أن أعطي كل شيء مقابل أن تأتي لتضمني قليلاً إلى صدرك؛ لأسمع كلمات الحب التي لم تقلها لي مطلقاً؛ لأتلقى الحنان الذي لم تعرف البتة أن تعطيني إياه...

فالابن يحب أباه، ولا يمكن أن تجري الأمور بشكل مغاير. لكنه حين يحس أن أباه قد تخلى عنه، وهجره، وجرحه، وخدعه، وحطم قلبه، فكيف إذن يتصرف؟

لقد حيرتني، يا أبي!

كم كان بودي أن أشاركك أشياء؛ كأن نقوم معاً بمشاريع؛ أن ننمي علاقة الابن بالأب ونجعلها أكثر عمقاً. لكنك نسفت ما تبقى من أواصر الحب والحنان. لقد تنكرت لكل هذه القيم. فبرعت بغيابك، وبلامبالاتك، وبصمتك.

اللامبالاة: هذا الموقف الرهيب، غير الإنساني لأنه قاتل وهدَّام!

ففي فرنسة، وطننا الذي اعترف بنا، أحياناً أحاول عبثاً أن أطرد الذكريات المزعجة التي تراودني بشكل لا يرحم.

فهي تتتالى عبر ذاكرتي كفيلم طال أو قصر. أقوم أحياناً بفرز بعضٍ منها، وانتقائه، وفق درجة حزني وقابليتي. أتوقف عند بعضها. وقد يستغرق ذلك ليالي كاملة.

أتذكر بقوة يوم أحد آخر تلا أحد أختي الصغيرة إذ طوت قصة سنها كما طوت ذكرك. كان يوم شؤم قلب حياتنا رأساً على عقب.

إنه يطفو من ماضيّ الطرابلسي وأنا في العاشرة من عمري كي يكدرني في غمرة نومي. كما يهاجمني إبان يقظتي وأمام الحاسوب حين أكون على وشك إنشاء موقع لصديق.

ففي الخامسة عشرة، وبمساعدة أمي التي تبرع في المعلوماتية، أنشئ مواقع، يا أبي! أكسب منها بعض النقود لمصروفي .إنني أعمل! خلسة منك.

إنك منهمك جداً بنفسك لدرجة جعلتك لامبالياً بما أفعل أو ما أقوم به.

أعرف ذلك حق المعرفة. هناك لحظات تقتضي إبعاد الذكريات المؤلمة من الرأس. يجب عدم إيقاظها، أو التوقف عندها...

إلّا أن ذلك يبدو مستحيلاً، أحياناً.

فالمواقف التي تُحدث صدمة في النفس تؤثر إلى الأبد.

هذا ما كان عليه ذاك اليوم الذي خطَّ مصيرنا.

إنني أتذكره دائماً لأنه شكل خط فصلٍ بيننا وبينك، بين حياتنا وحياتك الجديدة.

اليوم، تقتحم هذه الذكرى رأسي. لقد أبعدَتْ كل ما كنتُ أريد عمله على شاشتي الصغيرة كي لا يكون هناك إلّا اكتساح قاس.

أشعر بضرورة التحدث عنها، بتذكيرك إياها، أنت الذي تبدو قد تناسيت كل المصائب التي سببتها لنا. إنني أنقلها لك، هنا والآن. تعيد ذاكرتي بناءها بأدق تفاصيلها بينما تركض يدي على لوحة الأحرف الفرنسية كي أبعث إليك برسالة، قاسية على الأرجح، لكنك ستسامحني عليها، كما آمل.

تذكر:

لقد عدت ذاك اليوم من عملك باكراً وكأنك تبغي المشاجرة. لم أعد أذكر لماذا لفقت هذا السيناريو على أمي لكنني أتصور جيداً الإخراج المسرحي: لفظت عدة مرات اسم تلك المرأة وألححت كي تكون مدعوة إلى السهرة التي رتبتها مع والدتي. أصبحت فجأة عنيفاً (لقد رفضت أمي ذلك). حاولت الإمساك بها من كتفها مهدداً بضربها. لكن كبرياءها حالت دون ذلك: فأخذت حقيبة يدها ونزلت السلم ركضاً وخرجت.

لحقنا بها، أنا وأختي، ونحن نبكي ونرجوها أن لا تترك البيت. همست في أذننا تُطمئننا: أنني ذاهبة إلى بيروت عند جاكي. سأتصل بكما... سأعود حين يهدأ. ستقولان لي... أليس كذلك؟

أما أنت، فلقد استعدت هدوءك في الحال.

كنت في تمام السكون بعد رحيل والدتنا. حين عدنا إليك في غرفة الجلوس كنت أمام التلفزيون وقد تمددت على المقعد، والسيجارة بين إصبعيك. كنت تتحدث في الهاتف بحمية. ثم قطعت المخابرة وأنت تبتسم ببلاهة. اقتربت منك أسألك: مع من كنت تتحدث، يا أبي؟ (كنت أظن أنك كنت تكلم أمي). دفعتني قائلاً: "إذهب لرؤية فيلمك...".

استرجعنا أماكننا أمام التلفزيون، وقلوبنا مترعة بالحزن.

18

تابعنا مشاهدة فيلم "الحسناء النائمة" على شريط DVD. كانت أمنا قد شغَّلته قبل وصولك. أما أنت، فكنت تنظر في أعماق ذاتك، وقد انحنى رأسك على صدرك، وعيناك نصف مفتوحتين على الفراغ.

أو على السماء التي بدت قاتمة.

لقد كنت معنا، جسدياً فقط.

كما كان ذلك يحدث لك غالباً.

كنت أتجنب توجيه الحديث إليك،

ولكنت رفضت الحديث معي على كل حال.

في غياب أمي، كان حضورك يدفئني ويطمئنني. كنتَ بين الفينة والفينة تلقي نظرة سريعة على الفيلم من دون هدف محدد. كان ذلك يغبطني قليلاً، وإن كنا لا ننظر معاً " في الاتجاه ذاته "! لأنك كنت مستغرقاً في أمر لا أعرفه، وقد حبست نفسك في بكم ممل. كأن ثمة قضية في منتهى الخطورة تشغل رأسك.

هل كنت تعد ضربة قاضية؟ ضربة قاسية ضد أمي، شأنها شأن سائر ضرباتك؟

لكن حدثت بغتة تلك المفاجأة السيئة، حادث أزمتك الدماغية الذي كاد أن يميتك لولا أن...

هل هو المصير؟ أم العناية الإلهية؟ أم الحظ؟ أم كل ذلك معاً؟

كانت أعوامي العشرة عاجزة عن أن تستخلص شيئاً ما!

رأيتك تأخذ رأسك بين يديك. ضغطته بقوة وأنت تئن قليلاً. كنت تتألم. كان الليل قد حل.

أمرتني قائلاً: ـ اطلب لي المستشفى، بسرعة.

أدرت الرقم الذي كنت أعرفه عن ظهر قلب، لأنه كان مكان عملك. أجابني زميلك المناوب تلك الليلة، فمددت الهاتف إليك. لفظت الجملة التالية: "تمزق أُمْدميّ دماغي، ربما". لم أكن أعرف ما معنى ذلك لكنني أدركت أن هناك مشكلة خطيرة.

وصلت في عدة دقائق سيارة إسعاف الصليب الأحمر لتنقلك إلى المستشفى. كانت صفارتها تطلق صرخات تصم الآذان وهي تمزق السكون كما مزقت قلبي.

لم أستطع أن يغمض لي جفن تلك الليلة. كنت أفكر فيك بشدة، يا أبي. فمجرد حدوث مكروه لك يجمدني ويشلني. لم أكن قادراً على تصور الوضع لكنني رحت أسائل نفسي:

هل أنت على وشك الموت؟ وهل سيُحكم علينا بالعيش بقية عمرنا بلا أب؟ هل سنكون أقل تعاسة بدونه؟

كم كان شاقاً على تفكيري الطفلي أن أواجه كل تلك المشاكل. ثم إن فكرة الموت تبقى غامضة بالنسبة إلى طفل في العاشرة. مع ذلك، فلقد انتابني إحساس مبهم هدأت له روحي، كان مزيجاً من الشفقة والقلق. فعلى الرغم من حقدي المتأجج في داخلي، كنتُ قلقاً جداً على دخولك المستشفى.

نهضت باكراً جداً غداة اليوم التالي لأستعد للخروج. كنت أمشي حذراً بخطوات خفيفة، كي لا أوقظ أختي التي اختارت أن تنام تلك الليلة في غرفتي. كنت أريد أن أذهب للقائك في المستشفى، وأنا أقول في نفسي لأشد العزم: لن يستغرق ذلك أكثر من عشر دقائق مشياً على الأقدام.

بمجرد أن لبست بنطالي من الجينز تحركت أختي في سريرها، فتحت عينيها ثم نهضت فجأة وشرعت في ارتداء ملابسها:

ـ إنني آتية معك... أنت تذهب إلى المستشفى، ختمت كلامها بعينين مثقلتين بالنعاس.

ـ لكن... كيف تعرفين أنني ذاهب إلى المستشفى؟

رفعت رأسها بتحد من دون أن تنبس ببنت شفة.

ثم خرجنا من البيت الكبير عبر البوابة الضخمة. أغلقناها بحذر لنتجنب الصرير. ولكي لا نلفت نظر الخادمة الإفريقية التي كانت تغط في نوم عميق.

بدأت الشمس تبزغ لتكلل قمة الجبل بنصف حلقة رائعة من الأشعة المضيئة والمتنوعة، وتلفه بغطاء رقيق من الغيوم.

فجأة دب الدفء في قلبي.

كنا نسير بصمت يداً بيد نحو المستشفى، كما لو كنا ذاهبين إلى مصير ما.

لكنك لم تعد هناك يا أبي.

لم تلمحنا طبعاً حين دخلنا. لكننا استطعنا رؤيتك وقد حَمَلك على نقالة ممرضان وضعاك داخل سيارة الإسعاف. نقلوك إلى مستشفى في بيروت، هذا ما سمعته. انطلقت سيارة الإسعاف ثانية بصفيرها الحاد.

في البدء، لم أشعر بأي شيء نحوك: لم أقلق، ولم ينقبض صدري، ولم أحزن.

كيف يستطيع الإنسان أن يشعر بالرحمة وبالتعاطف أمام جلاده وإن كان هذا الأخير يحتضر؟

لكن هذا الإحساس بالانتقام لم يدم طويلاً. فلقد عقد حنجرتي نحيب داخلي. شعرت بأن دماءك تجري في عروقي. وبدلاً من أن أعود أدراجي إلى البيت، سرت في الممر المؤدي إلى مكتبك حيث كنت تمارس خياناتك؛ حيث كنت تخون أمي مع تلك \الأخرى التي تعمل معك في المستشفى ذاته، وفق ما كان يُروى لوالدتي من شائعات.

كانت أختي تتبعني كالظل.

كنا نسمع صامتين الصدى الخافت لخطواتنا الصغيرة والمسرعة.

19

جلسنا على كرسي من الجلد أمام باب مكتبك المغلق وقد التصق كل منا بالآخر، شأن حمامتين جريحتين.

مكتبك الذي بقي طوال سنوات، مكاناً للفضيحة.

ماذا كنا ننتظر؟

لم أكن أعرف شيئاً!

ربما كي أسمع زملاءك يتحدثون عنك. أجل، هذا ما أبقاني في ذاك الممر المعتم وأنا أصيخ السمع. من ركني، كنت أستطيع أن ألتقط بعض ما يتعلق بك من جمل، وكلمات، وحركات. فأفكها، وأترجمها، وأفسرها. كان قلبي يدق كالطبل. قال رجل أصلع: قد يكون التمزق الأمدمي الدماغي "قاتلاً" أحياناً.

لم تكن أختي تفقه شيئاً. أما أنا، فرحت أفهم بعض الشيء، وإن بدا لي ذلك معقداً. لقد تدبرت أمري ما استطعت.

للحظة قصيرة، غابت أختي عن ناظري. ثم وجدتها بعد مسافة صغيرة أمام سيدة بدا عليها الملل فراحت تصغي إلى أختي وهي تقول: "إن أبانا مريض. وضعه خطر. أرسله

مستشفاه، إلى بيروت... في سيارة إسعاف. إن زملاء أبي لطفاء. هناك، في بيروت يوجد طبيب عظيم جداً، إنه يَشفي. أمي في بيروت ولقد تخاصمت معه. يعاملها والدنا بقسوة. حاول ضربها..." إلخ...

لقد قيل كل شيء بصوت فيه شأشأة ظاهرة، بسبب ثقب سنها المقلوعة. كان صوتها الصافي والواثق يهدل كالحمام. راحت السيدة تبتسم لها بود، وتضحك بين الفينة والفينة. ثم اقتربت أختي برأسها من رأس السيدة لتهمس في أذنها قائلة:

- إن لأبي "عشيقة"! وهي امرأة شريرة! إنها ساحرة!

اقتربتُ وسحبتها من يدها. نهضت فجأة وهي تنظر إليّ بقسوة من علياء سنواتها الثماني. وقبل أن نختفي في طرف الممر رمقت السيدة ببسمة فاتنة. كان رأس لسانها يخرج من الثقب الصغير.

لكننا لم نرحل. تبعتُ الرجل الأصلع الذي تقدم ببطء وهو يتناقش مع الأطباء (لا شك أنهم زملاؤك). لم أكن أرغب في مغادرة هذا المستشفى الذي كان يعرفك، والذي كان يُعلمني عن وضعك. استطعت إذن أن ألتقط بعض النتف من الحديث، والتي كانت تكفي لأفهم قليلاً خطورة حالتك. كانوا يتبادلون الحديث بنبرة جدية، وبطريقة تكاد لا تُفهَم.

إن التمزق الأمدمي الدماغي "خطر". فهو جيب صغير يتشكل على شريان الدماغ، شأن بالون على غرفة هوائية.

فحين يتمدد الشريان، يصبح أكثر هشاشة، فيتشقق الجيب ويمتلئ بالدماء.

ثم تحدثوا عن أزمتك الدماغية الغريبة وعن الأسباب التي تُحدثها وهي: التبغ، والكحول، ولا سيما "الفياغرا التي تسبب زيادة ارتفاع الضغط الشرياني".

ثم أمست أصواتهم أكثر انخفاضاً.

تقدمت قليلاً لأقترب منهم أكثر.

يتمزق "الجدار" فجأة فيُحدث نزفاً. ينتفخ الدماغ لكن ذلك "منقذ"، هذا ما قاله أكبرهم. يظهر أول الأعراض على شكل صداع نصفي لكنه ليس كذلك. إنه انفجار في الرأس يصحبه غثيان. ثم لفظ الرجل الأصلع في النهاية: "قد يفقد بعضهم الوعي؛ لكن...".

لكنك... لم تفقد الوعي.

لم يصبك الدوار، شعرت فقط بالغثيان.

لقد قلتَه لي ورأسك بين يديك.

استمر نقاش زملائك.

اليوم، أسترجع بعض الكلمات وأدرك مرماها.

إن النزف الدماغي قد يسبب غيبوبة أو ما يُعرف "بالكوما". هناك بعض المرضى يخرجون منه صحيحين ومعافين. وآخرون تبقى لديهم بعض عواقب المرض وآثاره...

كان دماغي الصغير ذو الأعوام العشرة يغلي من القلق:

يا للمصيبة إذن... وإذا...

هل أصبحُ ابناً بلا أب؟

كانت هذه الفكرة تُطَير صوابي.

لماذا استحوذت عليَّ هذه الفكرة؟

أكنت أستشف ذلك؟

كان هذا يحزنني كثيراً.

اقتربت من الرجل الأصلع الذي كان ينظر إليَّ خلسة من دون أن يعيرني اهتماماً. لاشك أنه كان يعرفك، لكنه لا يعرف الصبي الصغير الفضولي الذي هو ابنك.

سمعته يشرح قائلاً: إن النتائج "تختلف"؛ وإن "حجم" الأمدمي الدماغي يلعب دوراً هاماً. ثم أضاف بصوت واضح موجهاً كلامه إلى زميله قائلاً: "إن الإسراع في التدخل الجراحي مهم جداً".

كنت أصيخ السمع.

إنني ابن "الطبيب"!

20

إنها كلمات... كلمات... تفلت مني لكنني كنت أستطيع تصور الموقف: " فالانقطاع" يمكن أن يؤدي إلى نتائج وخيمة.

رحت أردد قائلاً: "يا رب اجعل "هذا البالون" أصغر ما يمكن... وأن تجري العملية بسرعة... وأن لا تنفجر الغرفة الهوائية!".

كنت أصلي إلى الله كي تنجو بدون آثار جانبية وأن تعود إلينا، معافى.

لقد طمأنتني كلمات الرجل الأصلع الأخيرة: " إذا تم العلاج فالشفاء نهائي. وليس هناك خطر انتكاس".

أطلقت حينئذٍ آهة عالية! أخذت يد أختي التي كانت تتحدث مع ممرضة، وهربنا مسرعين.

حين وصلنا إلى بيتنا بعد ساعتي غياب (لا شك أنك قد وصلت إلى المستشفى البيروتي في الوقت ذاته من وصولنا إلى البيت) كانت جدتنا قلقة وقد أعلمتها الخادمة بغيابنا فراحت تردد بخوف قائلة: "لكن أين هما... بالله؟"، لكن الخادمة لم تكن تعرف شيئاً. لم تكن على علم بهربنا.

في تلك اللحظة اتصلت أمي بالهاتف فأطلعتها جدتي على نزفك الدماغي.

لقد تركها هذا النبأ السيء في حالة كاملة من الهلع والذعر، وباءت بالإخفاق محاولات جدتي لتهدئة روعها.

ـ لا بد أن تصل في الدقائق العشر الآتية، أوضحت هذه الأخيرة.

ـ لتأتي إلى هنا؟

ـ كلا، لتلحق بأبيك في المستشفى.

كانت أمي قد أمضت الليل عند جاكي بعد أن روت لها مشادة الأمس وكذلك مخاصمات الأيام الفائتة من عنفك، ومضايقاتك. ذلك أنها كانت تجد في صديقتكما المشتركة مواسيةً لها ومستشارتها. كانت جاكي قد أوحت إليها بطلب الطلاق. لكن أمي أبعدت هذه الإمكانية التي تعطيك فعلياً كل الحقوق.

فعلياً وليس قانونياً.

الطلاق[3]. إنه حل معقول إذا ما طُبقت القوانين من دون لف ولا دوران ولا تطويع.

أما أنت، فإنك تلوي تلك القوانين، وتطوعها وفق

---

(3) وردت كلمة الطلاق في النص الفرنسي بأحرف لاتينية بلفظها العربي، بعد ذكرها بالفرنسية (المترجمة).

مصالحك، وحسب هواك، يدعمك قاضٍ يكره النساء ولا دين له.

إنه ذكر مثلك، يبحث عن تفوقه السادي.

تعني تلك الكلمات سلطتك

التي تعطيك الحق في أن تطرد زوجتك.

ولو كان ذلك ظالماً أو تعسفياً.

فالأطفال لك. إنهم يخصونك ويحملون اسمك.

البيت لك، وما تبقى...

أما هي، فعليها أن تخلي المكان بمجرد أن تطردها.

عليها أن تترك البيت وتترك الأطفال...

لقد قررت والدتي أن تضع جانباً خلافاتكما، خوفاً من القوانين المشوهة، وتمسكاً بمودة تكنّها لك. جهدَتْ في أن تنسى الإهانات وكذلك العنف الذي أذقته لها. كانت حياتكما الزوجية في فترة التمزق، بسبب عشيقتك ومواقفك اللامعقولة.

كانت تفكر أن الأمور يمكن أن تُصلَح بشكل ودي. كثير من الأزواج يخونون زوجاتهم بدرجات متنوعة من دون أن يؤدي ذلك إلى تحطيم بيتهم الزوجي.

يمكن المصالحة وإيجاد تسويات، لسواد عيون الأطفال.

تلك كانت قناعتها.

لكن ثمة أشياء في الحياة لا يمكن معالجتها، وتستحيل تسويتها. ولاسيما حين يتدخل سوء النية. فلقد تبين كم هي هدَّامة خيانتك المُعلَمَة.

21

لم تمضِ عشر دقائق على سماع أمي النبأ،حتى وصلت برفقة جاكي وزوجها إلى المستشفى البيروتي، وعدة ثوان لتدق باب غرفتك. ولكن... وأنت مريض بين الموت والحياة، استمرت نذالتك بلا هوادة. ففي غرفتك في المستشفى، كنت تعد لأمي حادثاً مفاجئاً لا يُطاق ولا يُحتمل. إنه ضربة قاضية!

اليوم فقط أستطيع أن أتصور الأضرار المعنوية التي سببتّها لأمي الحبيبة. ولقد سجلت ذلك في يومياتها التي شرعت في كتابتها منذ وصولنا إلى فرنسة.

كنت أقرأها خلسة. وأغرق في جميع مستنداتها دون علم منها. وحين كان يصعب عليَّ فهم بعض التفاصيل، كنت ألجأ إلى جاكي، سواء هاتفياً أو على الأنترنيت، فكانت تشرح لي كل شيء بصدق وأمانة.

كنت أريد أن أعرف الحقيقة، يا أبي!

والتي لم يكن يصلح قولها على الإطلاق.

كانت جارحة، ومهينة، وغريبة بشذوذها.

تدينك بشكل صريح

إزاء سوء نيتك وقسوتك الوحشية!
لكنها الحقيقة التي جعلتني أكتشف خباياك كلها.
وكل واحدة أفظع من الأخرى.
كلها تعني الشيء ذاته:
وقاحتك، فساد أخلاقك، نذالتك، ساديتك.
وللأسف! ليس هذا بكل شيء.

كانت أمي على وشك أن تفتح بابك حين ناداها طبيبك المعالج ليمنعها من الدخول مشيراً إليها (آه! يا للخزي، ويا للعار):

"ممنوع يا سيدتي... بأمر من مريضنا".

إن طبيبك المعالج قد تلقى أوامرك التي كانت تمنع أمي من الدخول إلى غرفتك.

ما هي الأسباب الموجبة؟

لم تفهم أمي ذلك إلّا بعد عدة دقائق، حين لمحت، من مكانها في صالة الانتظار، "مفترستك" (وفق ما يردده الكثيرون) تتبختر وهي تجتاز الممر. لحسن الحظ أن جاكي وزوجها كانا هناك، بجانب أمي، ليؤكدا لها أنها لم تكن تَهذي وأن ما رأت عيناها كان صحيحاً.

كان وصول تلك المرأة قد صعقهم. لم يستطيعوا أن يصدقوا أنك قادر على سفالة بهذه الدرجة. لقد سبق أن فرضْتَ وجودها على أمي في مدينتك اللبنانية، مدعياً أنها كانت وحيدة، وأنك أيضاً بحاجة إلى مساعدتها في

المستشفى، وأنها تعينك في عملياتك. وفي وقت قصير، أصبحت تلك المرأة الدخيلة تقتحم سهراتكم رغماً عن أمي. كانت تدعوها "يا عزيزتي".

يا للوقاحة!

إلّا أن الإذلال لم يقف عند هذا الحد: أعني أمرك بالمنع ووصول تلك المرأة، بل تبع كل ذلك عمل يعجز عنه الخيال ويتجاوز كل الحدود. فالزوار والأصدقاء الذين كانوا يرافقون أمي في صالة الانتظار قد صُعقوا من ذلك. ليس لعدم لياقة الزيارة وغرابتها لكن للحركة السافلة التي وجهتها إلى أمي بإصبعها: إصبع الشرف!

كانت حركتها تفوق سفالة حظرك، أجل حركتها، حركة المرأة صاحبة فضائحك!

ذلك أنّ السيدة المحترمة، قبل أن تختفي في غرفتك، كرَّمت زوجتك بحركة جديرة بأقذر البغايا. مرت متعمدة أمام صالة الانتظار، وقد رفعت إصبعها الوسطى بحركة سوقية داعرة، لتوجهها نحو أمي (آه! يا لذروة الفسق والفجور)، وهو ما يسمى بإصبع الشرف، وقد رافقته بابتسامة شماتة وتشفٍ ارتسمت على فكيها العريضين.

إنني أتخيل المشهد الذي روته لي جاكي (بناءً على طلبي حين جاءت إلى بيتنا في إيكس) في فجر أعوامي الخمسة عشر، وقد بدا لي هذا المشهد غير معقولٍ.

كانت جاكي هي أول من لاحظ تلك الحركة. بقيت أمي

مذهولة من ذلك، وقد اكتسحتها موجة من الغثيان، فتقيأت طويلاً.

كانت هذه الحركة تُعبر عن أصل تلك السيدة المحترمة، على حد قول جاكي؛ لقد قامت بتلك الحركة "بمهارة" و"براعة مذهلة" كأنها قد أمضت حياة بأكملها تقوم فيها بتلك الحركة.

كانت حركتها تتحدث بلغة منحطة، ومهينة لك أيضاً!

أحسنت يا أبي، من أجل الشرف الذي جلبته لنا والذي كنتَ تريدنا أن نتآلف معه أنا وأختي...

أحسنت من أجل الدروس الفاجرة والقدوة التي أعطيتنا إياها! أحسنت من أجل الحركة الشائنة (التي يعاقب عليها القانون في الدول المتحضرة). أخيراً أحسنت من أجل مشهد الازدراء الشيطاني الذي أحسن إخراجه!

إنني أرثي لحال أمي الواقعة بين المطرقة والسندان!

هل تدرك، يا أبي، إلى أي مستوى منحط كنت تريد جرنا؟

من أي صنف من الرجال أنت؟

عليك أن تحمر من ذلك خجلاً!

لقد تعلمنا أن الأب يجب أن يكون "قدوة" لابنه.

وفي هذه الحالة؟ أية قدوة تعطي؟

يغمرني حزن عظيم حين أفكر في ذلك. لم يعد لي أب ولا قدوة.

لأنني أرفض التشبه بك.
ولا يهمني إن لم أجد قدوة ذكرية!
هنالك أمي الحبيبة ذات القلب العظيم!
حين عرفت، فيما بعد، أن أصدقاءك (بدءاً من العاملين في المستشفى ووصولاً إلى الخدم) قد تناقلوا وهم يضحكون المشهد الفاحش. إن خبراً من هذا الضرب يسهل تناقله في مدينة كمدينتنا!. حين عرفت ذلك خجلت عنك، ومنك، يا أبي.
لكنني رأفت بك في الوقت ذاته.
هل كنت تعي ما حدث؟
أنت الأب، والزوج، والدكتور (كنت تفاخر بذلك!)، من المفروض أن تحترم قواعد اللياقة.
في ذاك اليوم بالضبط، عرفت أمي أنك تزوجت سراً تلك المرأة
(لقد كانت المدينة كلها تندد بهذا الحدث). وكانت جاكي قد أدركت ذلك حين زارتك في غرفتك وأنت مريض!
تزوجت سراً: وهذا يعني أنك كنت تريد أن تخفي تعددية زواجك. ممَّ كنت تخاف إذن، ولماذا هذا التكتم؟
أكنت تخشى القوانين الفرنسية لأنك تخدع العدالة؟ (تعطيك القوانين اللبنانية طبعاً مطلق الحق)، أم تخاف من المجتمع المستعد لإدانتك؟

في الحقيقة، كان زملاؤك يستنكرون قصتك في "المقايضة" : لقد قايضت أميرتك بامرأة منبوذة ومحتقرة.

كان زملاؤك يحبونك حقاً. كانوا يحبون فيك الريفي الدمث والوديع. لكنك فاجأتهم وخيبت آمالهم بسلوكك المنحط نحو زوجتك والذي لا مبرر له، فهي زميلتهم الشابة كذلك، والتي يقدرونها كثيراً. لكن، اطمئن ؛ لم يكونوا يتحدثون عنك بالسوء في ممارسة مهنتك: إنك جراح ماهر ومتفوق في مجاله؛ يداه ذهبيتان تستعملان الأدوات الطبية بدقة. كان كثير من المرضى يطلبونك لتجري لهم العمليات الجراحية...

أقول لك ذلك لأنني أعرفك: فيك الكثير من التفاخر، وبعض التبجح. تحب سماع المديح والإطراء. أما التواضع ونكران الذات، فتلك صفات لا شأن لك بها.

و... لتعلم أن مرضاك قد تخلوا عنك ليذهبوا إلى جرَّاح آخر. لقد خاب أملهم عندك، هم أيضاً وفقدوا الثقة بمبضعك.

طرابلس مدينة قاسية تحكم بصرامة على الأفعال وعلى الفاعلين. تحذَر المتكتمين لذا لم تَستغرق وقتاً طويلاً لتشك بمصداقيتك.

22

أنت قوي يا أبي!

لقد انتصرت على نزفك الدماغي. لم ينفجر البالون كما كان متوقعاً.

تم التدخل الجراحي سريعاً.

قاومَتْ "الغرفة الهوائية "!

لقد نجوتَ!

خرجت صحيحاً معافى. بلا آثار جانبية، وبلا كوما، وبلا شلل.

لم يبقَ إلَّا صعوبة طفيفة في اللفظ،

لا تعيق مطلقاً مشاريعك الشيطانية،

ولا حيلك المخزية التي تلصقها بأمي.

أولاً من تدبيرك، ثم من قِبل مثيرة الفضائح،

كطعنتي سيف متتاليتين... في الظهر.

لقد فكر الجميع أنك حين تنتهي نقاهتك، ستعود مباشرة إلى البيت من أجل طفليك الصغيرين اللذين كانا في انتظارك؛ وزوجتك التي جرحْتَها والتي ضحت بكرامتها وأصدقائك الذين كانوا يريدون أن يحتفلوا بشفائك.

كنا واثقين تمام الثقة من أنك ستصحو من تيهك ومن ضلالك؛ وأنك ستحاول أن تصلح أخطاءك ورعوناتك، وأن كل شيء سيعود كما كان سابقاً. لكنك اختفيت كأنك طيف عَبَرَ. فالمرأة الشريرة قد أخذتك خفية من المستشفى إلى بيتها مباشرة. منذ ذاك الحين ابتلعتك، وافترستك، خلسة كما كانت قد فعلت بكل الرجال الذين مروا قبلك على فراشها!

بيتها: أصبح منزلَك الجديد حيث تختبئ؛ إنها شقة صغيرة معتمة قايضتها ببيتك، وبأسرتك، وبأطفالك.

واستعدت عملك في المستشفى في نهاية الشهرين. لقد شفيت تماماً من انقطاع أمدمك الدماغي. لكنك اختفيت فوراً، فتبخرت كالغيم حين ينجلي في الوادي.

حدث ذات يوم، حين كانت سيارة المدرسة تعيدنا إلى البيت، أن رأيناك تقطع الشارع قاصداً مكتبك. رحنا نناديك مرات كثيرة "بابا" ملوحين، صارخين، صائحين، وقد جعلنا من أيدينا بوقاً، لكن صراخنا ذهب أدراج الرياح شأن الكلاب التي تنبح للقمر.

لقد اختفيت خلف السور.

لم نرك بعد ذلك البتة،

ولزمن طويل.

ثم راحت أيام الآحاد تمر متماثلة، الواحد تلو الآخر، دونك، وبلا مشاجرات! لقد استطاعت مثيرة الفضائح أن تحتجزك عندها، أن تحبسك، بعيداً عنا، بعيداً عن ذكرياتك

على الرغم من رقتها. لقد أخفتك في شقتها المعتمة ذات الغرفتين، كما يفعل ماكس، الساحر الذي كان يحيي أعياد ميلادنا، بأرنبه في القبعة، وبالحمام في جيبه.

واستسلمت لها ببرودة أعصاب غريبة وبسكون مدهش.

علام أردت أن تبرهن؟ أنك لاتزال "سليماً" في رجولتك، بعيداً عن كل اعتراف بالضعف؟ وأنت ابن الستين، لا تزال قابليتك الحيوية نشيطة؟ وتستطيع أن تطلق دوافعك على الدوام؟

إنه لشيء مؤثر!

لقد تهمت أمي بأنها السبب المباشر لرحيلك المستعجل من البيت، وبالتخلي عن أطفالك الصغار.

فمع انقضاء أعوامي الخمسة عشر اليوم (لقد بلغت، يا أبي، الخامسة عشرة، منذ عدة ساعات؛ أتدري ذلك؟)، أجد أعذارك مضحكة إلى حد كبير، واهية لا يمكن تصديقها، كما أجد اتهاماتك سافلة. (وهذا شيء طبيعي بالنسبة إلى الأزواج الماكرين الذين يسعون إلى تبرير زناهم).

بينما كنت أغذي احتقاري لك، كنت مندهشاً أمام أمي التي تعاني صابرة كالملائكة من فضائحك الشائنة. كنت أفكر في الوقت ذاته بكل تلك الأمهات المستعدات لتقديم حياتهن، ولتحمل آلام المذلة ليحمين أطفالهن، وليسهرن عليهم.

ألف تحية إعجاب! لتلك الأمهات الحنونات!

رحت أتساءل، وأنا أفكر في ذلك، لماذا ليس للآباء روح التضحية هذه، ولا هذا الدفق المحب نحو أبنائهم. كان كل ذلك يحزنني.

هل فكرت فينا، يا أبي، أثناء لهوك الغريزي؟ (بل هل لاتزال في تمام رجولتك وقد تجاوزت الستين؟). هل تعبر في خاطرك ذكرى طفليك اللذين تخليت عنهما وأنت مع دميتك في مسكنك الجديد؟

لقد حطمت طفولتنا، يا أبي!

كسَّرتها ألف قطعة.

وهويت بها قبل أن تنضج.

شعرت، فجأة، وأنا في العاشرة من العمر بأنني كبرت بسرعة فائقة. ليس جسمياً بمعنى "نبت" و"ترعرع" (وإن كنت طويل القامة، دون علم منك!). فلقد كبرت حكمة، وروحاً. لقد جعلتني أنضج بشكل أبكر من سني، كثمرة الأكدنيا التي أنضجتها الحرارة العالية؛ أو بالقرب من أتون نار. إن الاختبار الذي فرضته علينا، قد أدى بنا، أنا وأختي إلى نضج مبكر. ولم يحدث ذلك بدون ألم.

فالألم يجعلنا نكبر، وننضج.

كتب ألفريد دو موسيه "ما من شيء يجعلنا عظماء إلَّا ألم كبير"! لاشك أنك قد درست تلك القصيدة في المدرسة، وتلوت تلك الأبيات المؤثرة.

23

بعد فترة قصيرة، بلغت الحادية عشرة. ثم الثانية عشرة، ثم الثالثة عشرة. ثم...

كان يحدث ذلك دونك، بعيداً عنك.

كم وددْتُ أن تكون حاضراً في مختلف أعياد ميلادي.

لقد هجرتنا، في لبنان، لتقيم لديها، غير مبالٍ بأفراح طفولتنا، وبأعيادنا!

أما عيد ميلادي العاشر؟

فإنني أتذكره جيداً!

كان موقفك ذاك اليوم كما لو كنت تقول: ما لي ولكم...

وكما يحدث كل عام، فإن أمي احتفلت بعيد ميلادي في الحديقة. دعت أصدقائي، ورفاق صفي وبعض أصدقاء أختي. كما أحضرت ماكس، الساحر الذي لم يعد يسليني .

لم أكن أنظر إلى يد الساحر البارعة الخفة والتي كانت تظهر أشياء الأطفال الحاضرين وتخفيها، كل واحد بدوره.

لأنني كنت أنظر في ذاتي، وأنا أفكر فيك، يا أبي!

رحت أفكر في قلبك الأبوي العديم الإحساس، في

غيابك الذي أشعر به بقسوة، بلامبالاتك القاتلة. تركت لك على هاتفك الجوال رسالة كي تأتي يوم سنتي العاشرة، لترى رفاقي، وكل هذا العالم الطفولي، البريء، الذي كان يراقب ألاعيب ماكس وحيله مصدقاً إياها تصديقاً شبه كاملٍ.

كم كنت أود أن يراكَ أصدقائي، كي أفخر بك. وكما تعلم، أن يكون المرء، في لبنان، بدون أب، أو بأب غير مهتم ولا مبالٍ فذلك باعث مذلة وتعاسة. كان أطفال مدرستي الذين في وضعي نادرين. ففي لبنان، يبذل الزوجان قصارى جهدهما حفاظاً على صحة أطفالهما النفسية والفكرية. يرددون أن غياب الأب ذو تأثير سيئ على الطفل. هنا في فرنسة، لا تُطرح المشكلة بالطريقة ذاتها، لأنه يُنظَر إليها من زاوية أخرى، أكثر حكمة...

لذلك كان حضورك عيد ميلادي الطرابلسي ذا أهمية كبيرة بالنسبة إليَّ. لقد كنت حزيناً وبائساً أمام رفاقي، كيتيم الأب، في حين كان لي أب. حتى إن عيد ميلادي لم يخطر على بالك. وإن حدث كان مثار مللك وسأمك، وأنا أعرف ذلك. لكن حضورك كان يعطيني ثقة بذاتي وشجاعة و... اعتزازاً. كانت تلك أمنيتي الوحيدة في ذاك اليوم، أمنية صبي على عتبة المراهقة وهو يبحث عن أبيه.

ولقد حطمتها.

24

أيجب عليَّ أن أؤمن بالله وأفترض أن الصالحين سيكافَأون، ليس فيما بعد، في حياة أخرى بعيدة وفي المطلق، لكن، في غضون ذلك، هنا، على الأرض، من خلال واقع ملموس، كما كانت تقوله لنا جدة والدتي؟ في واقع المكان هنا، والآن؛ في الزمن وفي المكان اللذين يكوّنان جزءاً من حياتنا، ومن خلاصنا، كما كانت تؤكده لي جدتي كذلك؟

كان لها بعضٌ من الأفكار الفلسفية التي ترددها على مسامعي.

هنا والآن كما يُقال باللاتينية[4]: (hic et nunc)، لقد تعلمت ذلك تواً في المدرسة الثانوية من أستاذنا في الفلسفة.

إن هذه المفاهيم عن المكان والزمان، قد عشناها بشكل مؤلم، في كل تقلب من تقلباتك، وكل ضربة أعددتها لنا، في كل انتقالاتنا الشاقة في فرنسة من منزل إلى آخر.

---

(4) ورد هذا التعبير (hic et nunc) في النص الفرنسي باللغة اللاتينية (المترجمة).

إن الحياة في الوقت الحاضر ترجعنا إلى كل ما يحدث فينا في اللحظة الحالية، وكلنا قدرة على الشعور والإحساس من جديد. هذا يعني التصرف برد فعل على شكل مشاعر، وأحاسيس، ومعاناة، وانفعالات بالنسبة إلى كل ما يحدث فينا، وما هو خارج عنا.

هنا و الآن: ألم تكن لديك يوماً تلك المفاهيم، يا أبي؟

يبدو أنك تعيش خارج الزمان والمكان، غير واعٍ لما يحدث حولك، وربما عما يحدث في أعماقك. إنك تضرب صفحاً عن انفعالاتك، وعن مشاعرك، وعن عمرك. فلا يبقى لك إلّا شيء واحد: شخصك الأناني. إنك ترى العاصفة تهب حولك، لكنك لا تحسها، متناسياً أضرارها.

لأنك لا ترجع إلى الواقع الملموس المحيط بك.

أما عاصفتنا، فلقد عشناها كما تجلت لنا، هنا والآن. استطعت أن أعي هشاشة الكائن وكذلك الوجود وخضوعهما إلى "نظام علوي"

كان رحيلنا عن المدينة حيث أذقتنا مر العذاب، والهرب عن أماكن طفولتنا، خاضعين لهذا النظام العلوي.

من كان يظن أن الحرب التي انفجرت بغتة في لبنان في عام 2006، قد كانت أجمل فرصة لنا، وأجمل هدية قد أرسلها الله إلينا؟

الحرب يا أبي! المعجزة! مكافأة الصالحين. هذه المصيبة التي ألمت بالآخرين قد صنعت سعادتنا.. كانت يوم سعدنا،

ونجاتنا. هي التي أنقذتنا منك ومن حيلك ودسائسك؛ التي لبت بشكل تام انتظار أمي!

هل تدرك ذلك؟

أجل! كانت الحرب، التي جاشت فخربت ودمرت، قد أنقذتنا من المصيبة، وأخرجتنا من الوضع المعقد. إنها حدث خلاصي!

هذا ما قامت به حرب تموز 2006. يا لغرابة الأمر.

يطلق حزب الله صواريخه على اسرائيل، فتَردُّ عليها بقسوة. إنها تحطم كل شيء باكتساحها لبنان. كانت حرباً حقيقية، طبقاً للأصول! أحدثت كوارث، لكنها كانت أصل نجاتنا! أصل خلاصنا!

أرسلت حينذاك السفارة الفرنسية مراكبها، كما الأمر في فترة الحرب، لتعيد إلى الوطن مواطنيها الفرنسيين... بمن فيهم، نحن!

إلّا أنك كنت تعرف ذلك، يا أبي! كنت تعرف أننا سنستفيد من تلك الفرصة النادرة لنهرب. لنهرب منك! لكنك أغمضت عينيك، لأن ذلك يهمك: كنت تأمل الحصول على برهان قوي لتشي بأمنا عن "فعلتها غير القانونية"، عن "جريمتها" التي ارتكبتها ضدك: ألا وهي خطف أطفالك!

كنت تنتظر وصولنا إلى فرنسة كي تقيم دعوى فورية: "عن أم هربت مع طفليها وحرمت أباهما من رؤيتهما".

لقد فكرت في ذلك قبل أن يقلّنا المركب الذي "أعادنا إلى الوطن" والذي أنقذنا من حرب قذرة: حربك!

كنا بين السماء والبحر، حاملين معنا انفعالاتنا المأسوية والمطمئنة معاً، على سطح مركب (Mistral). كان يشق عباب البحر المتوسط نحو فرنسة، كان ذلك أقرب إلى السريالية. لقد نجونا بجلدنا منك، كما نجوت أنت من نزفك الدماغي.

كنا متلاصقين يشد كل واحد منا على الآخر.

كانت أمي تحيطنا بذراعيها الواهيتين، كما تحيط السيدة مريم ابنها.

لم نكن ثلاثتنا، على هذا المدى الهائل لسطح البحر الضخم الذي كان يخط مكاننا وحاضرنا، إلّا نقطة صغيرة جداً في تلك الفسحة الشاسعة.

كنا نقطة تعجب صغيرة أمام الأفق.

كنا الناجين.

وقد نجونا من كرهك، يا أبي

ونحن في هرب مضطرب.

شأن العصافير التي هربت من أقفاصها، أو شأن نعاج قد نجت في آخر لحظة من شدق الذئب.

أطلقت أمي آهة ارتياح حين رأت جزيرة قبرص تنبثق عن بعد. هناك حيث سيبدأ التغيير: تغيير قدرنا، ومصيرنا، وجهتنا.

ستنقلنا شركة الطيران الفرنسية إلى باريس. ومن ثم القطار إلى مدينة إيكس. لقد نجونا!

25

غالباً ما أستعيد يوم رحيلنا.

هرب العصافير خارج أقفاصها.

بعيداً عن صيادها وعن... صيادته.

ذات صباح باكر من شهر آب، مفعم بالبريق إذ حالفنا حظ لم نكن نحلم به بمغادرة لبنان. ومن غريب الأمر أنه قد حدث ذلك يوم أحد، لكنه يختلف عن سابقيه، ولن يعود، كما نعرف ذلك، كأيام الآحاد التالية، لأنك لم تعد تشكل جزءاً من مشهدنا!

رحلنا إذن، دون أمل في العودة.

رحلنا هاربين، تركناك وقد خاب أملك لأنك لم تستطع تدارك الوقت للّحاق بنا، لم تستطع احتجاز أدوات التنفيس عن عدوانيتك، كما لم تستطع إمساك أمي، ضحيتك، والتي تصغرك بثلاث عشرة سنة، والتي قبلت لزمن طويل أن تكون الضحية خوفاً من الانفصال عنا، وخوفاً من فقداننا.

كنتَ تهددها دوماً "بالطلاق" وتُذكرها "بحقك في الحضانة" الممنوحة للأب .

كنت تستخدمنا، نحن أطفالك، كطعم لتوقعها في الفخ،

وتتخذ منا ذريعة لتقنع العدالة "بالجرم" الذي ارتكبته أمنا، في حقك.

لتكسر قلبها، كنت تريد أن تأخذنا بقوة القانون الذي كان، في لبنان، في جانبك! وكذلك بقوة المرتشين والظالمين.

الرشوة! لقد قيل لي إنها تشكل حالياً جزءاً من المشهد اللبناني!

إنني أسترجع تلك اللحظات الخارقة، أجل، ذاك الأحد من آب 2006 والذي كان مُخَلِصاً لنا وإن كان مقلقاً، حيث أعدت أمنا هربنا أحسن إعداد. كانت سيارة التاكسي تنتظرنا خارجاً، وكذلك المركب الفرنسي (Le Mistral)[5] الذي سيكون "ضربة الريح" التي ستعصف بك.

كان بعضهم يظن أننا هربنا من طرابلس بسبب الحرب التي اشتد سعيرها ولأن فرنسة تطالب بنا، نحن الرعايا الفرنسيين. لم يكونوا يعرفون أن هربنا كان بسببك، وبسبب عنفك، وطباعك السيئة، بسبب الرجل المخادع الذي أصبحتَه، بسبب المشاجرات التي كنت تستفزها ضد أمي لتبرر زناك ولكي تذهب للعيش مع تلك المرأة التي تثير رعبنا. تلك الساحرة كما كانت تسميها أختي الصغيرة؛ ومثيرة الفضائح

---

(5) Le Mistral هو اسم المركب كما تعني هذه الكلمة ريحاً شمالية عنيفة باردة وجافة تهب في فرنسة على شواطئ المتوسط. (المترجمة).

كما كان يحلو لي تسميتها! كنت تريد أن تفرضها علينا، كي تصبح أمنا.

يستحيل ذلك، يا أبي! يا للضلال! ليس للمرء إلّا أم واحدة!

عبثاً صحبتنا إليها، كان ذلك يزيد احتقارنا لها. كانت تبث العداوة ضد أمنا، وحتى ضدك أنت، وتحاول أن تزرع الخصام في أسرتنا الصغيرة وقد كسَرَتها (بمساعيك الحميدة). كانت تخيفنا، يا أبي، لقد كانت حقاً زوجة أب شرسة، ليست أمنا هي التي علمتنا هذا التعبير، كما أتهمتها به في المحكمة.

كانت أمي تتحمل خططها وكذلك خططك كي تبقينا معها وتتجنب اللجوء إلى الأحكام القضائية. ولقد عَلِمْتُ فيما عَلِمْتُ أن القوانين في لبنان هي دينية بحتة، وأن للرجل امتيازات وحقوقاً مميزة تعمل على تفوقه، واستغلاله لذكوريته. لقد عَرَفْتُ ذلك من أفعالك ومن تجربتي القاسية في الحياة.

لقد فرضْتَ على الصبي وهو في العاشرة من عمره، تجربة ليست على قياسه. لكنه عاشها وفق منطق على قياسه.

لقد تعلم دروساً وعبراً.

فرأس الأطفال لا يعمل كما يعمل رأس الراشدين، وأنت تعرف ذلك! فمخيلتهم مختلفة؛ وقد تكون أحياناً أكثر إشراقاً، وإن غذَّتها حكايا الجنيات.

كانت تلزمنا حرب لنفلت من قبضتك وننجو بأنفسنا.

"ننجو": هنا أيضاً أثق بالكلمات وبمعانيها، إنها تعني الهرب، وحماية الذات معاً. إذن نجونا! نجونا بجلدنا الذي كنت " تبغيه".

إن حياة الطفل على الرغم من قصرها تعلمه الكثير، كما ترى!

حين أخذت مكاني في التاكسي بالقرب من أمي، الجالسة في الوسط، عقد القلق حلقي وأنا أرى شجرة الأكدنيا تبتعد عني وكذلك شجرة الخوخ، ثم بيتنا الكبير وقد أصبح نقطة معتمة في الأفق وهو يختفي تدريجياً؛ ثم بحرنا وبيتنا الخشبي على الشاطئ والذي حرمتنا منه، من أجل حفنة من الدولارات. لكن قلقي بلغ ذروته حين أدركت حزن ميكي العميق وهو يبكي...

وأنت، يا أبي، أين كنت في ذاك الوقت؟

كنا نختفي ولم تكن ترفع إصبعك الصغير لتمنعنا. هل كنت مختبئاً في مكان ما تراقبنا لتطمئن على رحيلنا النهائي؟

لقد كان من الغباء، كما تعرف، ألا نستفيد من هذه الفرصة الوحيدة لنهرب، ليس على الإطلاق، من الهجوم الذي أحدثه الطيران الاسرائيلي والذي أشعل لبنان، ولكن لنهرب من عدوانك البحت الذي كنت تشنه علينا. هَرَبْنا من شخصك، ومن طبعك الذي تغير وتبدل، وبمجمل القول هربنا من تحولك.

تساءلت طويلاً لماذا يُصاب بعض الرجال "بطبع

بغيض"، فيصبحون أنذالاً وانتقاميين حالما يقومون بعلاقات خارج الزواج (لأنهم يقعون في شباك عنكبوت ربما تكون سامة؟).

أما بالنسبة إليَّ، فإن العكس هو ما يجب أن يحدث في حال الزنى...

26

لم يعد من المستَغْرَب في أيامنا، أن يكون لرجل متزوج عشيقة، كما كان الحال في الماضي البعيد. شرط ألَّا يتحول هذا الرجل إلى وحش فظ أو إلى حيوان ـ آلة أو إلى ذئب مستعد لتسديد ضربات قاتلة إلى رفيقته تدفعه إليها متعة الهجوم وحدها؛ أو ليلبي رغبة شاذة في التعذيب.

كما فعلت، يا أبي!

من المفترض أن يشعر الرجل الزاني بالندم من وقت إلى آخر فيصبح متسامحاً لطيفاً مع زوجته لأنه يخدعها تماماً، ويكذب عليها، ويؤلمها، ولأنه يخونها! عليه أن يشعر بالندم، وبشيء من الخجل، لا أن يسدد نحوها طعنات من الكره!

هكذا فكرت اليوم.

كم أود أن أعرف ما يدور في رأسك وقد ابيض حالياً، حين اكتشفتَ اختفاءنا من أماكن زناك!

ألم تخجل قليلاً؟

قليلاً جداً؟

ألم ينتَبْك شعور طفيف بالذنب

لأنك تخليت عنا؟
لأنك رميتنا، فدفعتنا إلى الهرب بعيداً جداً؟
إلى بلد آخر، وإلى قارة أخرى؟
على بعد آلاف وآلاف من الكيلومترات،
قذفتنا في الفراغ وفي الفضاء اللامتناهي؟

حين يخترق الألم قلوب الأطفال فإنه يحطمهم لكنه يجعلهم أكثر قوة، ويزودهم بتجربة تعلمهم ويمدهم بقدرة على الحكم أشد صرامة.

عشر سنوات، إحدى عشرة، اثنتا عشرة، ثلاث عشرة، أربع عشرة واليوم خمس عشرة، عمري، رحت أفهم تدريجياً لعب المخاتل. طوال كل هذا الوقت، كانت صرخة واحدة تفطر قلبي وهي تتكرر دون كلل "ماذا فعلت بأطفالك، يا أبي؟ بصغارك الذين في أمسّ الحاجة إليك، إلى شخصك، إلى حضورك، إلى محبتك، إلى صورتك الضرورية لتفتح شخصيتهم؟ ما موقع وجودنا بالنسبة إليك؟"

إن أخي، غير الشقيق، الذي ليس من أمي، ابنك الأول، قد فهم تمام الفهم ذلك، في حفل زواجك الثالث حين قال: "لنا أب مَعيب!". لقد تخليتَ عنه، هو أيضاً، حين كان طفلاً صغيراً، وإن أمي هي التي ربته. هل تنوي، يا أبي، أن تنجب أطفالاً آخرين، لتتخلى عنهم بعد ذلك؟

أو إن هذا من الصعب حالياً لأن صاحبتك البالغة

الخمسين لديها مشاكل إنجاب، وهذا ما تناقلته عنك الألسن الساخرة.

إن تلك الفكرة تبهجني. فهذا يجنب ذريتك المحتملة عذاب التخلي عنها.

كانت أختي في السادسة من عمرها حين قالت لي ذات يوم: "إن أبانا حقير. لنا أب شرير". كان هذا أكثر من أن تتحمله طفلة في مثل سنها. لكنها هي أيضاً قد اكتسبت فلسفة خاصة؛ منطقاً على قياسها أمّنتَهُ لها مجاناً بالتواطؤ مع "مفترستك" (فالذين سموها هكذا ـ عن خطأ أو عن صواب ـ كانت لهم أسبابهم الخاصة).

ألم تنجَح في "أكلك" فجعَلَتْ منك لقمة سائغة؟

تسللت إلى حياتكما الزوجية بمكر أحسنتْ إحكامَهُ، وقد عرضَت صداقتها المخادعة على أمي التي صدقتها، والتي لم تدرك خطتكما: خطتك وخطتها، كما لم تَعِ لعبتكما المزدوجة على الإطلاق: لعبة الشاذين الساديين.

كنتَ تلهو بإخافة أمي، وبإيلامها، ليس بوضع منافستها مقابلها فقط، ولكن بإيجاد الكلمات التي تصعقها والتي قد تزعزعها.

تذكر جحيمك اليومي الشهير الذي وعدتها به!

لقد أخذتُ معي مربعك الورقي الصغير حيث وقعْتَ بيدك، ونذالتك، وساديتك ولاإنسانيتك.

اليوم، أحاول أن أجد تفسيراً مُقنِعاً لهذا السلوك الشاذ.

لكنني لا أجد له أي تبرير لأن كل شرح غير مقبول، وكل تبرير يعجز الفهم عنه.

أحاول أحياناً أن أسترجع الأشياء بوضوح أكبر، وبواقعية أشد، وبحكمة أعظم، بعيني مراهق جعلتَه ينضج، دون علم منك. كنت تلعب ذاك اللعب القذر لأنك كنت تريد قطعاً أن تترك أمنا المُهانة البيت بلا ضجة وبلا صخب؛ كي تصبح الفيلّا لك نهائياً، للزوجين الجديدين المشبوهين، وذلك بأن تلوي القوانين قليلاً.

ولتحقيق مشروعك الشيطاني، لم تتردد في اللجوء إلى التهديدات الكلامية، والمكتوبة، والسلوكية، أي من كل الأشكال والأنواع.

كنت تستعرض عليها قوتك بأعمال عنف تعبر عن خطة إثارة الرعب. لا شيء يمكن إضافته!

إنه الإرهاب، يا أبي، بعينه!

27

إلّا أن الأشياء لم تحدث كما كنت تريد. لم تكن الرياح مواتية لك، في ذاك اليوم! لم تستطع أن تحصل على جلدها، كما كنتما قد خططتما معاً، أنت وساحرتك.

لقد هربنا بسرعة كبيرة بعيداً عنك!

إلى عالم آخر، إلى قارة أخرى، أكثر رحمة، وأكبر عدالة.

رحلنا إلى فرنسة، يا أبي، إلى ذاك البلد الذي استقبلك شاباً والذي منحك كثيراً من الشهادات العليا.

هنا، في بلدك في الماضي، أسترجعُ كل شيء: أنا الطفل الصغير في الرابعة من عمري، أسعدُ مع أبي وأمي. أتذكر أسفارنا؛ ابتساماتنا ؛ ضحكاتنا.

ثم أقمنا في لبنان، حيث طرد الشبح المرعب ظل سعادتنا. هذا الشبح هو أنت! وهي! زمننا السعيد قد حولتَه إلى جحيم.

لاأزال أتذكره، يوم هربنا. مضى ما يقرب من أربع

سنوات على ذلك. غالباً ما تجتاحني ذكراه بمجرد أن يحل الظلام في بيتنا الصغير (HLM)(6) وفي الشارع أيضاً.

قطعت أختي الصغيرة بحزن بهو بيتنا بعد أن دست خلسة في حقيبتها الصغيرة، بالتواطؤ مع جدتي، دمية كانت لا تفارقها؛ والسائق يطلق مزمار سيارته وقد نفد صبره ويستعجلنا بصوته الأجش: "هيا، أسرعوا! لنستفيدَ من هذه الهدنة الصغيرة؛ إن جسر جونية قد نُسف بكامله؛ يجب أن نجد طريقاً آخر!".

لم يكن ذاك اليوم عادياً، ولا هادئاً، على الإطلاق.

لم يعرف السائق أننا في قرارة أنفسنا، كنا نشكر الله لأنه أحدث الحرب بين إسرائيل وحزب الله، والذي نحمده لأنه أشعلها، هذه الحرب غير المنتظرة. كما لم يعرف السائق أن الحرب التي كنا نهرب منها هي أنت.

إنه مشهد يراودني فأسترجعه حين أكون في باحة مدرستي في فرنسة. غالباً ما أبتسم، لكنني أبكي أيضاً.

أفكر في رحيلنا المفاجئ والمباغت؛ بذاك الاقتلاع القاسي من بيتنا، وملجئنا، وملاذنا، وعريننا؛ أفكر بالأشياء الثمينة التي تركناها خلفنا.

دون أن تكون هنا، يا أبي.

---

(6) HLM تعني سكن بإيجار معتدل، وهو أقرب إلى المساكن الشعبية (المترجمة).

أنت أيضاً، كنت تهرب منا. ربما كنت سعيداً لأننا ابتعدنا عن طريق غريزتك.

أسترجع أحياناً صوتك المهين وأدرك اليوم معنى الكلمات التي لم أفهمها حينذاك.

من هنا، من القارة الأخرى التي أسكنها حالياً، والتي لها هنا والآن خاصّيتها، بقي بعض الرنين، وبعض الأصوات لاصقة كاللبلاب، على جدران ذاكرتي.

إن نباح ميكي، ومواء القط، وخفقان الأرنب، وحفيف أوراق الأشجار، وصرير مفاصل الباب، وصوت جدتي العذب التي كانت تُلَقِننا نصائحها في آخر دقيقة... كل ذلك يعود مجدداً باستمرار من أعماق كياني وأنا أحاول أن أجد ذاتي.

إن النبرات والأصوات التي غالباً ما تعاودني كأنها آتية من عالم ما ورائي هي حاضرة تماماً، وواضحة كل الوضوح، ومؤلمة كثيراً، وحية إلى حد كبير. إنها تحدد، كبصمة، ذاك اليوم الشهير الذي وصمني بعلامة لا تُمحى مدى الحياة .

يحضر في خاطري ميكي بشكل خاص.

حين رأى التاكسي يبتعد ورؤوسنا تلتفت، راح الكلب الصغير ينبح بطريقة مؤثرة، وهو يائس، وحزين، ومغلوب، أدرك أن الكائنات العزيزة التي يحبها قد رحلت إلى غير رجعة.

ربما أشعره بذلك حدسُه الحيواني. فحدس الكلاب حي، وحاضر، وشديد. لديها الحدس الحسي، ولقد كان لميكي حدس كبير جداً يفوق ما لكثير من البشر.

وضع رأسه على كتف جدتي، وقد خضع للأمر الواقع، وهو يعي ما يحدث حوله. إنه قبول الألم.

لقد أدرك أنه لن يرانا بعد الآن على الإطلاق!

على الإطلاق!

أجل. فالهاربون لا يعودون البتة إلى نقطة انطلاقهم. كما لا يتعلقون البتة بأمل العودة.

ونحن، كنا هاربين!

أنشأتُ، أمس، موقعاً لشخص لا أعرفه. وتسلّمت عن طريق الأنترنيت ثلاثين أورو، أي ضعف عمري. لا بأس، أليس كذلك؟

كم آسف لأنك لا تستطيع أن تشاركني متعتي و... مرارتي.

إن المبالغ الهزيلة من الأورو التي تحولها لنا شهرياً عن طريق محاميك لا تكفي لدفع بطاقات هاتفنا الجوال ولتسديد فواتير الكهرباء. لقد وعدنا محامينا بأن يرغمك على دفع جميع المبالغ والإعانات المستحقة عليك منذ سنوات طويلة. لقد قال إنك مرغم على تسديد ما هو مترتب عليك.

إلّا إذا لجأت إلى ذرائع جديدة لتخدعنا كلنا، حتى المحامي!

مضى حتى الآن أكثر من أربعة أعوام لم نر فيها ثانية أرضنا اللبنانية بعد هربنا (كان عليَّ أن أقول بعد عودتنا إلى الوطن).

كان هذا الهرب قاسياً لكنه خلصنا.

فرضتَ هذا الهرب علينا، بتصرفاتك النذلة وبتصميمك على تحطيم أمي، وإن كان ذلك بواسطتنا.

هناك آباء على شاكلتك: كي يثأروا من زوجاتهم يلجأون إلى الضغط عليهنّ عن طريق أولادهم!

كان كل ذلك يخيفنا ويبعدنا بكل ما يمت إليك بصلة.

لكن إحساسك يا أبي، حدسك؟ ألم يقل لك شيئاً حين كنا نغامر على الطرق المحفوفة بالمخاطر؟ ذاك اليوم الذي غادرنا فيه البلد دون أمل في العودة؟

كلا! لن نعود إلى بلدك قبل أن نبلغ سن الرشد. وإلّا فستعود إلى ألاعيبك وإلى تهديداتك بالخطف. ستحتجزنا، لا لشيء إلّا لتحطم أمي بحرمانها منا. وذلك بشكل قانوني، وباسم قوانينك الدينية.

أليس هذا السبب كافياً لنهرب؟

كلا! لم تكن الحرب العسكرية هي التي عجلت رحيلنا. فليذهب إلى الجحيم المحاربون الذين نسوا الآلام الإنسانية؛ فليهلك هؤلاء المحاربون اللامباليون الذين يتبادلون القذائف كأنها كرة في مباراة كرة القدم.

لم تكن حربهم هي التي دفعتنا إلى الهرب.

لكنها حربك أنت، يا أبي، أشد هجومية، وأكبر وحشية، وأكثر قذارة!

وكانت قوانينك الدينية الظالمة قد حولتها إلى هذا الشكل. تلك القوانين التي تمنحك التفوق، والسلطة، والحق في أن تُطَلق زوجتك متى تشاء، وحيث تشاء، والحق في أن تنتزع أطفالها منها.

هل تتصور قليلاً هذا الظلم؟ هل تتخيل أطفالاً من دون أمهم، من دون تلك التي حملتهم في أحشائها، وربتهم، وعلمتهم، وأرضعتهم من ثديها... كيف يمكن إرغام هؤلاء الأطفال على الانفصال عن سبب وجودهم لإعطائهم إلى الأب الأرعن لتربيهم امرأة غريبة؟

ما هو هذا \الامتياز الممنوح لرجال بلدك؟ كيف تُبَرر تلك المظالم ضد النساء؟ ماذا تعني هذه الجملة الشهيرة التي تطلقها في كل لحظة كأنها شيء طبيعي، وعام: "سأطلقك وآخذ الأطفال".

" تأخذ الأطفال"؛ وماذا تفعل بهم؟ لتعهد بنا إلى تلك المرأة القاسية التي لم ترد البتة أن تربي ابنها الذي ولدته! إنها تبعث فينا القلق وتثير خوفنا ورعبنا. لم نكن نجرؤ في بيتها أن نمس الطعام خوفاً من أن تسممنا!

إنها لا توحي لنا بشيء صالح، ولا بما يمت إلى الأمومة من قريب ولا من بعيد.

إنني أعرف شيئاً واحداً يا أبي: لو بقينا في تلك المدينة

حيث يكره القضاة النساء ويظلمونهن ويناصرون الأزواج الزناة، لكنتَ فصلتنا عن أمنا، ليس لأنك تريد أن نعيش معك، لكن لتحرمنا تلك المرأة ذات القلب الكبير والتي لم تؤذك مطلقاً. لأنك كنت تغار منها، ومن نجاحها، ومن ذكائها.

كنت تلومها لأنها كانت لامعة.

لقد أردت تحطيمها لأنها تجعلك تخبو في المجتمع. لكن ذلك ليس ذنبها إذا كنت غير منسجم مع ذاتك؛ وفي علاقاتك.

إلَّا تلك التي هي خارج الزواج!

في التاكسي الذي كان يأخذنا نحو مصيرنا، بكينا بلا دموع، ونحن نرى كل شيء يتلاشى وراءنا. ابتعدنا عن طفولتنا، وعن ذكرياتنا، بينما كنت ترسل زبانيتك ليترصدونا ويراقبونا.

28

كان فرارنا مفيداً لك. هكذا ترتاح ويخلو لك الجو بدون زوجة وأطفال. إنك تفتخر بزوجاتك السابقات: واحدة فرنسية، أم شقيقي الذي من غير أمي... واحدة لبنانية، أمي، وإذا ما غيرت المعايير والقيم، وقعت على "المفترسة" وربما كانت ذات قدرة هائلة؟

هل هو إدمان أم تجميع، يا أبي؟

إنك تخيفني.

فالأم تنسى ذاتها من أجل أطفالها؛ أما الأب فينسى أطفاله إلَّا ما ندر.

وهذا ما فعلته، أنت! بالتواطؤ مع "المفترسة".

أنني أفترض أنك لن تستطيع أن تفلت منها باعتبارها "مفترسة"، فستحتجزك بقبضة حديدية ولن تستطيع الهرب من سجنها.

إنك تشبه حشرة وقعت في شبكة عنكبوت!

ستخنق صرخاتك.

إنك تستحق ذلك.

ستكون هي عقابك،

وتثأر لنا منك.

تبعنا ذاك اليوم تعليمات السفارة الفرنسية. يجب أن نكون في الصباح الباكر في المعهد الفرنسي اللبناني، وهو مكان تجمع الفرنسيين. هناك سيارات كبيرة تؤمن النقل، إلى مرفأ بيروت، أمام مركب (Le Mistral).

أمضينا الليل عند جاكي.

كانت أمي تكبح قلقها وخوفها بمشقة، حتى حين أصبحنا داخل المركب وقد أحاط بنا جنود من البحرية الفرنسية التي كانت تحافظ على أمن إجلاء الرعايا. لم تستطع أمي أن تخفي هلعها وقد ضاعت بين آلاف الفرنسيين ـ اللبنانيين الراغبين في العودة إلى الوطن (أو الهاربين مثلنا). كانت تمسكنا بالقرب منها كأنها تخشى أن نُخطف.

وأدركت أنها ترتجف.

كانت تخاف أن ترسل جواسيسك إلى المركب لاسترجاعنا (بقوة القوانين حتماً، لم نكن قد تجاوزنا العاشرة والثامنة)، وأن نتركها وحدها دوننا. لم تهدأ إلّا حين رأت المركب يبحر ويبتعد عن المرفأ.

كانت القذائف تخط سماء بيروت الزرقاء والجميلة التي تُغتصب.

راح البحر المتوسط يدمدم بعذوبة. كما امتدت المدوسات

(المعروفة بقناديل البحر) تحت أجراسها الشفافة وغطَّت سطح المياه الزرقاء. كانت أختي تصرخ دهشة وفرحاً. لكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ تمالكت نفسها وهي تسأل مباشرة:

ـ لم يأتِ أبي. هل هو حانق؟

لم تتلقَ أي جواب، تابعَت النظر إلى قناديل البحر الجامدة كالصخر. أما صخب القصف الذي يدوي في قلبي، فلم يكن ليهزها قيد أنملة.

ـ هل سنرى الدلافين، يا أمي؟

نظرت أمي إليَّ واكتفت بأن رفعت رأسها بالنفي.

وهنا تذكرت ثانية أسفاراً بحرية أخرى، معك يا أبي ومع أمي. وأنا طفلٌ في الخامسة من عمري تقريباً، وأختي في الثالثة. ذهبنا إلى عدن وإلى الخليج ورأينا الدلافين... هل تذكر ذلك؟ بقيت تلك الرحلة محفورة في رأسي؛ إنها تراودني لأننا كنا سعداء.

يندر أن ينسى الأطفال اللحظات السعيدة التي عاشوها.

على سطح المركب الحربي، بينما كانت نظراتي تتابع حركة القذائف والأمواج، تذكرت شرم الشيخ، والأردن، والقاهرة وكل تلك الأسفار الرائعة التي قمنا بها في كنف أسرتنا، معاً. كنا أطفالاً صغاراً مدللين، هانئين، مطمئنين، يغمرنا هذا الشعور بالأمان لأننا كنا مع والدينا.

فقدنا هذا الإحساس منذ أن وليتَ الأدبار! منذ أن حولتك المفترسة إلى طبق شهي.

كنت تتمتع، بالطبع، بمركز ممتاز، وبمظهر وسيم، وكذلك بالمال الذي كانت عشيقتك تطمع به منذ زمن طويل. إنه المال الذي كسبتَه مع أمي! والذي تستعملُهُ الآن ضدها لتسدد أتعاب محاميك!

كنا مع الأسف ننام على أمجادنا، غافلين عن أي هاجس قلق، لم يخطر قط في بالنا أن يأتي يوم، يتحول فيه أبونا إلى وحش قادر على كل الأفعال الشريرة، وقادر أن يدوس صغاره، بدون أسف ولا قلق.

حين يداهِم الألم قلوب الصغار يصمهم بالشمع الأحمر، فيترك فيهم علامة إلى الأبد.

أجل! لقد أثَّرْت في أعماقنا، يا أبي. بتصرفاتك السيئة والمباغتة، بأفعالك الفظة، بتقلباتك وتردداتك. وكنا أصغر من أن نتحمل كل ذلك ونعانيه!

29

حين وصلنا إلى فرنسة، سكنا عند جميل، رفيقك وزميلك. وكما وعدنا، فلقد أعطانا الطابق الأرضي المجاور للحديقة. هنا أيضاً كنا ننام ملء جفوننا، وكلنا ثقة بجميل الصادق والإنساني الذي يرأف وزوجته بحالنا وبمأساتنا العائلية .

لكن ما حدث، بعد ما يقرب من الشهر، أن راح يستعجلنا بإخلاء الشقة وبالذهاب "للبحث عن سكن في مكان آخر".

ما عساك قد أوحيت إليه، أو قلته له، ووعدته وهو رفيقك كي يحشرنا ويطردنا من مسكنه، وهو الذي حث أمي على أن تحزم أمرها وترحل؟ هو الذي عرض علينا شقته ريثما تجد أمي عملاً؟

إن زوجته سوزي التي كانت تعتبرها أمي أختاً لها، هي التي عجّلت رحيلنا بأن وجدت لنا شقة نستأجرها من شخص مسافر.

اضطررنا، بعد شهرين، أن ننتقل ثانية، لأن المستأجر الذي أجرنا شقته قد عاد من السفر. استطاعت أمي بجهد

جهيد وبفضل زميل قديم لها، أن تجد شقة اضطررنا إلى الانتقال منها كذلك بسبب مشكلة أخرى. وهكذا دواليك. لم تتوقف الانتقالات. ففي خلال ستة أشهر، غيرنا أربع مرات مسكننا. أتتصور ذلك قليلاً؟

كان آخر مسكن شقة من ثلاث غرف، تقع في المساكن الشعبية؛ إنها شقتنا الحالية. أثثتها أمي بحدود إمكانياتها المالية وهي عاطلة عن العمل وتنال معونة من الدولة. وأنت، وقد تركتنا بدون قرش واحد، كنت بلا شك سعيداً برؤية أمي في وضع بائس لا تُحسد عليه. لكن تلك المرأة الشجاعة ناضلت. فبفضل المساعدات العائلية والسكن الذي أمنه لها الضمان الاجتماعي، استطاعت قهر وحشيتك وقسوتك وتخطي العقبات التي نصبتَها لها. كنتَ تستشيط غضباً وأنت تراها "تتدبر أمورها" وحدها!

كيف لي تخيل أنه بين عشية وضحاها سينقلب صوابك وكذلك حياتنا بهذه الطريقة؟ هنا والآن تَغَيرا بسرعة كبيرة كعقارب الساعة، لكننا صمدنا، وتشبثنا بواقعنا الجديد قدر استطاعتنا. لم يكن الأمر سهلاً: تغيير الظروف، والبلد، ونمط الحياة إلخ، ومن أجل من، وماذا؟

فمن فيلا بثلاثة طوابق، إلى شقة بثلاث غرف: الفرق شاسع! لكن كانت لنا كرامتنا.

إنها الهوة مع ذلك، أو أعماقها! وذلك بسبب الحنين الجياش الذي غالباً ما كان يجتاحنا!

أكنت تعي ذلك؟ هل فكرت بأطفالك الذين جئت بهم إلى هذا العالم رغماً عنهم، من دون أن تستشيرهم ولمتعتك وحدها؟ من واجبك على الأقل أن تتحمل مسؤولياتك.

أنت، البخيل بمشاعرك، بوقتك وبمالك، هل تعرف ذلك؟

30

في شقتنا المتواضعة، النظيفة والنقية، كنا أسرة صغيرة راضية وهانئة لأننا كنا نعيش تحت جناح أمي. استسلمت طويلاً إلى نوع من العزلة البناءة وأنا أتأمل كل صباح شروق شمس إكس الرائع على الغابة المجاورة. إنها تشبه بأشعتها المنشطة شمس لبنان. كنت أشعر بالحنين إلى بيتي في طرابلس مع كل يوم يمر. لم أكن أتحدث بذلك خوفاً من أن أثير قلق أمي لرؤيتي أتألم.

إلى أن جاء ذاك اليوم حيث ظهرتَ في فرنسة غاضباً متوعداً، لتطيح بطمأنينتنا وتلعب دور الإرهابي.

لقد أتيت إلى بيتنا البسيط والمتواضع وأنت تبغي اصطحابنا، نحن أطفالك، إلى فندقك القريب، منفذاً توصيات القاضي.

تعرفت عليك بصعوبة بعد سنة فصلتنا.

لم تعد أنت الذي عرفت.

من الذي شوّهك هكذا؟

وقبّحك؟ وهزّلك؟

هل انتهى عهد الأناقة والمظهر الحسن؟

وما هذا الكرش الذي يشوهك؟
وهذه السترة التي تضيق بك؟
أين بزاتك الأنيقة الفرنسية؟
كان وجهك منتفخاً، وشعرك فضياً أشعث،
جافاً، باهتاً، خشناً...
في الماضي، وأنا طفل في الخامسة، كنت معجباً بوسامتك،
أتأمل مظهرك كطبيب معتزٍ.
منْ شوَّهك؟ ومنْ غيرك هكذا؟
هل تعكس تلك الصورة أعماقك؟
انعكاس الندم؟ والشعور بالذنب؟
إلَّا أنني لا أراك تشعر بالذنب، يا أبي.
حتى هذا اليوم.
وفيما بعد.
حين ستجابه نهايتك الأخيرة.
وصلتَ إلى فرنسة بعد عام من الانفصال؛ باشرت فوراً برفع الدعاوى، الواحدة تلو الأخرى.
وبما أن الحجج كانت تنقصك، رحت تقدم أعذاراً واهية لتصل إلى غاياتك.
فغاياتك تبرر وسائلك.
واستخدمت أطفالك كذرائع وحجج.
جَرزْت أمي إلى المحكمة.

كنت تضطهدها.

وأمي الحبيبة تهينها أفعالك.

ألم يكن في استطاعتك تسوية الأمور بالطريقة السلمية؟

وكي تذهب باضطهادك إلى أقصى حد، رحت تهددها ببيع بيتنا اللبناني الذي تملك أمي نصفه.

في حين كنت تحثنا على العودة إلى طرابلس، ليس لنشترك في حياتك الجديدة. كلا. لقد اقترحت أن تشتري لنا "شقة كبيرة" تصبح مسكننا الجديد. ويا لقمة كرمك إذ عرضت علينا إمكانية العيش فيها مع أمنا. لكننا أدركنا بسرعة لعبتك. كنت تعد أمنا لإهانات جديدة، ولحرب جديدة؛ أما نحن فلعذابات جديدة.

إنه بيتنا، يا أبي!

لماذا تريد أن تَحْرِمنا منه، كما فعلت ببيتنا الخشبي على شاطئ البحر؟

سنعود إليه ذات يوم.

أي أبله يقايض منزله، بيته، مسكنه، بصف من حجارة لا روح لها؟

أي مجنون يتخلى عن بيته الصغير، وعن أفراحه التي عاشها، ومشاعره التي أحسها فيه إلى شخص لم يشعر قط بتلك الحالات الوجدانية؟

أجل، سنعود ذات يوم. حين نبلغ سن الرشد، ونصبح قادرين على مجابهتك.

ستكون حينذاك عجوزاً صغيراً في السبعين، قاسياً يتلذذ بتعذيب الآخرين.

ليس لأن بيتنا "فيلّا" نشتاق إليه ونتحسر عليه، بل لأنه بيت طفولتنا، إنه "Milly"[7] طفولتنا.

يا أبي! هل تعرف شيئاً عن الفونس دو لامارتين؟

وهل تستطيع أن تفهم عذابنا؟

إن الفيلّا البيضاء التي كانت مملكتنا هي ما تمثله "Milly" بالنسبة إلى لامارتين؛ إنها مخزون ذكرياتنا وذاكرتنا.

الذي أردت محوه: أي اغتصابه...

إن عشيقتك تطمع فيها، لقد حلمَت بها طويلاً. تريدُ أنت أن تحقق حلمها وذلك بتحطيم حلمنا!

ثم أعددت خطة أخرى، أكثر جهنمية، وأشد تدميراً ألا وهي بيع بيتنا في المزاد العلني، بعد أن أدركتَ عقم "مشروع" البيع الذي أردت تحقيقه في اللاشرعية.

يا الله وكل أوليائه!

في المزاد العلني؟

من يزيد؟

لقد صعقني هذا النبأ!

---

(7) إشارة إلى قصيدة شهيرة للامارتين بعنوان Milly ou la terre natale عن مسقط الرأس وموطن الطفولة (المترجمة).

راح المحاميان (محاميك ومحامي أمي) يتبادلان لوائح الدفاع في هذه القضية المريبة والقاسية.

إن تصميمك على بيع ذكرياتنا وأحلامنا، وعلى سلبنا أفراحنا في الماضي، لتقايضها بمتعتك في الانتقام، يعني تحطيمنا!

ألم تكن لك ذكريات طفولة تشدك، يا أبي؟ وبمدلول عزيز عليك؟ أثرت فيك مدى الحياة؟

ألم يكن لك "أشياء لا حياة فيها" تمنحُها حبَك وروحَك "فترتبط تلك الأشياء بروحنا وترغمنا على حبها"؟

31

منذ شهر وأنا لا أتوقف عن قراءة هذه القصيدة للامارتين التي طلب منا أستاذنا أن نحفظها غيباً. لقد حفظتها حتى ثنايا روحي.

كان بيتنا كل تلك "الأشياء التي لا حياة فيها" والتي تحيطنا فنبعث فيها الحياة بإعطائها روحاً.

لمَ أردتَ خنق هذه الروح التي تُحيينا؟

"Milly" أو مسقط الرأس": لقد بكيتُ في الصف حين اطلعت على القصيدة. سألني الأستاذ عن السبب، لكنه كان يعرفه: انفصلنا عن أثمن ما لنا. عنك، عن سقفنا. كلاهما واحد بالنسبة إليَّ.

إننا بلا سقف، يا أبي! نعيش بعيدين عنك!

"Milly"! لاشك أنك تعلمت هذه القصيدة في المدرسة، حين كنت في سني. مثلي، هذه السنة. لابد أنها أثرت فيك، هذا الشعر الذي يهز وجدان كل من يقرأه. إلَّا إذا كانت كلمات الحب والألم لم تعد تعني لك شيئاً. كل يوم تعلمني مدرسة الحياة وكذلك أمي كلمات الحب.

تعلمت منك كلمات الكره، والبغضاء، والثأر والتي كنت

توجهها إلى أمي (لكن بغضاء أي شيء، وضد من، ولأي سبب، تلك التي لم تهِنْك مطلقاً؛ بينما أنت المُهِين، أنت الذي هجرت البيت، أنت الذي تخليت عنا، وغادرتنا دون أن تلتفت وراءك؟).

ما هو السبب "الرئيسي"، و"العظيم"، يا أبي؟

ما كان، منذ فترة وجيزة، ملجأنا، وكنزنا، ومخزوننا الطبيعي وفسحتنا، رحتَ تهدده بالاختفاء، وبالسرقة، وبالاغتصاب... أردتَ أن تستولي عليه، أو تترك أحداً ما يستولي عليه. المهم هو أن تحرم أمي منه.

بدت لنا الفكرة فظيعة، لا تُطاق، حين كنا نجتمع مساءً حول الطاولة بدون أب، فنتناقش في ذلك.

بيتي \الأبيض، موضع فخري واعتزازي؛ كنْتُ فخوراً بالانتماء إليه وفخوراً بأنه يخصني! كانت أختي الصغيرة تشعر بحنين لا تستطيع السيطرة عليه، وهو أقرب إلى الخيال والهلوسة، كما كان الحرمان والهجر يؤلمانها ألماً شديداً.

راح حلمها يتلخص بعدة كلمات: العودة لنعيش في بيتنا. كانت تشدد على هذا المؤشر المكاني وهي تضرب برجليها على الأرض الخشبية لمسكننا المتواضع (HLM).

لم تكن تعلم أن امرأة غريبة تحلم باحتلاله وبتملكه، وبترك آثارها وذلك بمحو آثارنا. لكنها كانت تعرف تماماً أن والدنا هو أول قاتل لذاكرتنا!

32

لكن للعدالة الكلمة الأخيرة إذ تنتصر دائماً وتأخذ مجراها الطبيعي.

أصبحت أمي بين عشية وضحاها جرذ مكتبات، وذلك كي تصد هجومك، وتتقي ضرباتك المحتملة. راحت تفتش في صفوف المكتبات، وتنقب في كتب القانون بحثاً عن مخرج. حتى إنها تابعت دروساً في القانون ووكّلت محامياً أملاً في استرجاع حقوقها التي أردْتَ بأي ثمن أن تسلبها منها، تلك الحقوق التي كان بلدها لبنان يجهلها. نجحَتْ في نهاية الأمر أن أحبَطَتْ خططك وكذلك مشروعك الشيطاني بعد أن قامت برفع دعوى يدفعها الأمل.

لأننا كنا في فرنسة، يا أبي، بلد العدالة والانصاف. هنا لا يوجد قضاة مُرتشون يعملون على تشويه القوانين من أجل حفنة من الدولارات. ولا يوجد شيوخ قادرون على ظلم النساء الشريفات والأطفال الأبرياء. ففي فرنسة، يكتشفون بسرعة، يا أبي، حيل الأزواج الساديين ومكرهم، كما يكتشفون الآباء اللاإنسانيين.

هذا ما كان يُطَير صوابك، ولا يزال يجننك حتى إنك

حقدت على أمي إلى الأبد، على تلك الإنسانة، زوجتك طوال ثماني عشرة سنة، وأنت تكبرها بثلاث عشرة سنة!

كنتَ كغريق يحاول أن يطفو مستعيناً بجلة قذارة، وكانت تلك الخطة الأخيرة شائنة تماماً: إنها حيلة منحطة بشكل لا مثيل له ولا يستطيع تدبيرها إلّا الأزواج الأنذال ضد زوجاتهم! وقد نجح بعضهم في تضليل العدالة بخدعتهم.

كما أخفق بعضهم الآخر.

حاولتَ أن توهم القضاء الفرنسي بأن أمي مجنونة. كنت تتهمها باضطرابات عقلية خطيرة، ابتداءً من العصاب ومروراً بالذهان، فالهستيريا ثم بعقدة الاضطهاد، إلى انفصام الشخصية، مردداً ذلك دون خجل، أمام قاضي المحكمة مما جعله يَرتَبك لأنك ذكرت كل أشكال الجنون لتلصقها بشخص واحد: زوجتك.

تذكر جملتك الشهيرة التي لم تكف عن ترديدها على مسامعنا، كل مرة تأتي فيها إلى فرنسة: "لقد جئت لأنتزعكما من ذراعي هذه المجنونة".

أي وحش في أعماقك كان يملي عليك كلمات هكذا؟

وكيف استطعتما (أنت وغولتك) أن تتصورا مثل تلك الدناءة والحقارة؟

إن القاضي الذي استمع إليك في الجلسة المغلقة (والذي استنكر اتهاماتك التعسفية) قد فهم بسرعة: لم تكن أول زوج

يلجأ إلى تلك الذريعة القذرة ليشي بزوجته من دون براهين كي يبعدها عن طريقه، ويحبسها في مشفى للأمراض النفسية.

إن اجتهاد محكمة النقض، وقد أدركت ألاعيبك القذرة، طلبَ كشفاً لأطباء نفسيين أوصيتَ أنت به بشكل قاطع بخصوص أمي، والأجدر إجراؤه لكَ أولاً. هكذا تفككت لعبتك القذرة! وانكشفت بسرعة كذبتك الوقحة.

كنت تخطط بشكل مفضوح، يا أبي!

إن القضاة، المنصفين والمستقيمين، لم يقبلوا على أية حال الظلم والكذب كما قبله قاضيك اللبناني! ولم يكن الأطباء النفسيون الفرنسيون مغفلين. فبعد أن تصدّوا لمخططك الشيطاني وكشفوا مطالبك الخطرة، لم يكفوا عن التساؤل "لِمَ كل هذا الحقد؟".

بلغت اليوم الخامسة عشرة وانتهيت من قراءة كل الملفات المتعلقة بمختلف الدعاوى التي رَفعتها على أمي (سواء في فرنسة أو في لبنان). لقد كانت كثيرة جداً ضد شخص واحد أعزل.

كنت تريد أن تتخلص منها بتطبيق الفكرة القذرة للمثل الشعبي القائل "من أراد إغراق كلبه اتّهمه بمرض الكَلَب".

ولقد تكالبْتَ على القيام بذلك!

(ولأنني بدأت أفهم جيداً) كان هذا، في نظري أفدح خطيئة يمكن لإنسان أن يرتكبها ضد قريبه.

وماذا لو كان هذا القريب طوال سنين رفيقه "في السرَّاء وفي الضرَّاء"؟

إن اتهام زوجته بالجنون لا لشيء إلَّا لينتقم منها؛ وتقديم أعذار جبانة وكاذبة لخدمة هذا الهدف كي يتخلص منها فيصبح حراً يفعل ما يحلو له... هذا أفظع سلوك يقوم به إنسان.

33

كَثُرت أسفارك إلى فرنسة من ذهاب وإياب، ليس بسببنا أو لأنك تحرص على رؤيتنا، لكن لترفع الدعوى في هذا الاتجاه وتزعزع أمي، وأنت تأمل مع ذلك أن تُجري المحكمة عليها وحدها كشفاً نفسياً. وكما يفعل كل الآباء الأنذال، حاولتَ أن تفلت من نفقتنا المعيشية التي حكم بها القاضي.

كم كنت تحب أن تزعزع أمي الحبيبة بأن تواجه قواك السلبية! كنت تمارس عليها إرهابك النفسي كي تجعلها مجنونة فتستطيع بالتالي أن تستولي على كل شيء.

ثم حين لاحظتَ أن اتهاماتك لم تأتِ بما كنتَ تأمله، ولم تستطع أن تتخلص من أمنا، انقطعت عن المجيء إلى فرنسة، تاركاً للضمان الاجتماعي الاهتمام بإعالتنا؛ ولمحاميك أن يتابع نذالاتك.

لكن دعاويك التشهيرية سقطت الواحدة تلو الأخرى لأن العدالة هي التي تحكم. أما اتهاماتك فلقد فقدت فعاليتها لأنها كاذبة.

حينئذٍ استقْرَرت في مدينتك، بالقرب من مثيرة الفضائح

التي لم تكن تستطيع مرافقتك بسهولة في كل أسفارك (بسبب جنسيتها).

كم من الوقت مضى لم تأتِ لرؤيتنا؟

عامان، ثلاثة أعوام؟

شيء من هذا القبيل؟

لكنك وأنت بعيد، لم تتوقف عن مضايقتنا، نحن أبناؤك الصغار. في الواقع كنت تبغي إزعاج أمي ومضايقتها بعد أن عجزت عن أن تثأر منها تماماً، وأن تقصيها نهائياً عن طريقك، سواء في بلدك حيث تُرتكب المظالم بسهولة، أو في فرنسة فيما بعد عن طريق القضاء. حين عرضت أمي مشكلتها العائلية، مأساتها، أمام المحكمة التي تمارس مهامها القانونية كما يجب، انكشف وجهك المخبأ فظهر عارياً على حقيقته.

كم دعوى رفعت؟ وكم محامياً وكلت؟ اثنين في لبنان واثنين في فرنسة بدأت بهم. وكنت تغير محاميك كما تغير قمصانك وفق إيقاع غوغائيتك. كنتَ تجن، وتصرف أموالاً طائلة، وتتخبط كي تحدث أكبر أذى لها، وأفدح ضررٍ يصيبها وهو أخذنا منها! اقتلاعنا عنها وذلك بأن تثبت جنونها!

وعلى حد علمنا، لم تكن "مغرماً" بنا على الاطلاق!

تذكر يا أبي حين كنت تأتي إلى فرنسة، في أول سنة من وصولنا، كنت تبقى معنا أقل من نصف المدة التي فرضها عليك القاضي. لمَ نَفَسك قصير بهذا الشكل؟ على الرجل الذي بلغ الستين أن يكون أطول صبراً!

كنت تسدد بسخاء أتعاب محاميك، وكلك أمل في جعلهم يتواطأون معك ضمنياً، شأن السارقين في السوق. كنت تفكر بطريقة "لبنانية" إلى اقصى حد مما منعك عن التفكير بطريقة مغايرة؛ وهذا ما دفعك إلى تصور المحامين الفرنسيين "يُشتَرون"!

لقد أخطأت في ظنك.

نسيت أن اتهاماتك تخضع لقوانين علمانية وليست دينية، وأن العدالة "فرنسية" وليست "لبنانية"، وهي نقية وصافية كماء النبع. يرفض القضاء الفرنسي تسخيره.

لقد خذلك عقلك اللبناني الوضيع! ذلك ما فعلته تماماً بوقاحة في لبنان، وقد استفدتَ من الفساد الذي اجتاح النفوس الجشعة بعد الحرب، بمن فيهم بعض الموظفين وعدة قضاة يصدرون أحكاماً ضاربين عرض الحائط بالقيم الأخلاقية.

كنت بخيلاً معنا ترفض أن تصرف على هواياتنا وتسلياتنا، في حين أغدقت بسخاء على محاميك الفرنسيين واللبنانيين. فما كدتُ أبدأ بالفروسية حتى أوقفتَها. تركني ذلك لامبالياً. لم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى أختي الصغيرة التي رأتك ظالماً ومستبداً. كانت تحرص على حصانها الصغير، فتضمه وتقبله.

أكانت ترى فيه صورة الأب الذي فقدَتْه، أو ظل الرجل الذي حُرمنا منه؟

ومع ذلك كنت تعرف أن رياضة الفروسية مفيدة جداً لها. لكن أمي لم تدعها تُحرَم منها. فدفعت لقاء دروس فروسيتها بآخر مدخراتها التي جاءت بها من لبنان.

كنت تقول لنا إن ذلك مكلف، فامتنعْتُ عنه لأنني لا أريد قرشاً من مالك.

لم أحدثك مباشرة عن ذلك، لم أتوسل إليك، لأن كل ما تفعله يثير قرفي واشمئزازي.

لقد رفضتُ أن تشتريني بقروشك، وأن تمنحني الإحسان المشروط.

34

إن شُحّك يقزز نفسي ويبعدني عنك.

أنت ثري تملك أراضي، وبيوتاً، وحسابات في البنوك بالقطع الأجنبي. هذا يُقيم مسافة بيننا، لاسيما حين عرفت أنك تدفع لجواسيسك ولزبانيتك الذين كانوا يراقبوننا (بالسخاء ذاته الذي كنت تدفع فيه أتعاب محاميك). كانوا لبنانيين يسكنون في فرنسة وقد قبلوا التواطؤ معك لأنك أغريتهم بمالك وخدعتهم بكذبك. طلبت منهم أن يرصدوا حركاتنا وتحركاتنا، وأن يقدموا لك تقارير شفهية وكتابية وكذلك "شهادات شهود" تقدمها للمحكمة.

علمتهم الخداع والجشع.

يا لك من معلم ذي خبرة، برعت في هذا المجال!

كان ملوان واحداً منهم: مخبراً وجاسوساً!

راح يقترب منا، ويحاذي أمي بلطف، وبتكتم، ظناً منه أنه يستطيع أن يأخذ منها إقرارات واعترافات ينقلها إليك فتستخدمُها ضدها.

كم من آلاف الأورو قد دفعت إلى "عملائك السريين"

مقابل "معلومات" (من أي نوع؟). لكنك لم تكن تعرف أن زبانيتك كانوا "عملاء مزدوجين". تأثروا من مأساتنا العائلية؛ فرقوا لحالنا وتعاطفوا معنا وقد لاحظوا مدى وحشية والدنا .

إن المبالغ الضخمة التي كنت تغدقها بسخاء على محاميك وأعوانك، حبذا لو استخدمتها لتدفع لنا نفقة معيشتنا التي حددها لك القاضي المختص بالشؤون العائلية. كان في استطاعتك أن تغير وضعنا نحن الذين نعيش من المساعدة الاجتماعية الفرنسية؛ ولو فعلت ذلك باعتبارك والدنا الطبيب، لكنت أنقذت ماء وجهنا وجنبت أمي أن تُحَول أخر قرش لها في لبنان.

وإلّا، كيف كنا نستطيع أن نعيش على المساعدات العائلية وحدها؟

كنت تهرب من التزاماتك وتتملص من مسؤولياتك برفضك تسديد الإعانة التعويضية التي حددتها المحكمة. كنت تظن أنك بانسحابك إلى بلدك الأصلي، وباعتبارك مسلماً صالحاً متعدد الزوجات، تقيم هناك "ولا أحد يستطيع أن يَمسك" وأنك في منجى.

وماذا عن تربية أولادك وأنت المسؤول عنهم؟ وعن معيشتهم؟ وعن تحمل أعبائهم؟

لمن تتركهم؟

كنت تُبَدد ثروتك كي توطد الظلم وتربح دعواك: دعوى الشيطان. كنا ننتظر وجلين قرارات المحكمة ونهاية الملاحقة القضائية؛ وفعلاً استغرق ذلك وقتاً طويلاً، كما هو الشأن في مخاوفنا وقلقنا أيضاً!

35

"كل جرم يقتضي التعويض".

استطعت أن أقرأ مع أمي هذا التفصيل في القانون المدني الفرنسي. وفهمت أن مرتكبي الجرائم لا يستطيعون أن يفلتوا من العقاب، وأن أي تقصير في الواجب يعاقب عليه القانون.

هدّأ كل ذلك من روعنا وبعث الأمل في قلوبنا التي ذوت.

يا إلهي! لا شيء يثير غيظي بقدر ما يثيره التقصير في الواجب! إنه عمل في منتهى الوضاعة.

استطعت أن أقرأ كذلك أن الأب الذي لا يدفع إلى زوجته، خلال أكثر من شهرين، النفقة المعيشية المستحقة لأطفاله أو لزوجته "يعاقب بالسجن، إلخ "ويُعتبر عمله" جريمة التخلي عن مسؤوليته العائلية".

كل ذلك أعاد لنا الثقة.

فالظلم سيُعاقب عليه.

لكن الإجراءات طويلة، طويلة، طويلة.

نبهنا محامينا بقوله: " سيستغرق ذلك وقتاً لكن النهاية حميدة ".

كم مضت أعوام على ارتكابك هذا "الجرم" وهذا "التخلي عن مسؤولياتك العائلية"، يا أبي، وأنت تصم أذنيك عن استدعاءات المحكمة لك؟ كنت تختبئ خلف هويتك ولبنانيتك الدينية...

لكن المحكمة كالإله، تمهل ولا تهمل على الإطلاق، وهذا ما قالته لنا جدتنا يوم وصولها عندنا.

ففي وضعنا المعيشي الذي لم يتغير والمُعتمِد على الإعانة الاجتماعية، وكذلك إقامتنا في شقتنا الحالية الصغيرة للمساكن الشعبية، بعيدين عنك، كنا نكبر باستمرار، بلغت الثالثة عشرة؛ ثم الرابعة عشرة...

ثم الخامسة عشرة! اليوم!

أما أنت، وقد أصبحت في الثالثة والستين، فلاشك أنك لم تعِ الزمن الذي يركض ويضني. كانت دعاويك قد استأثرت بك، منذ أربع سنوات، ولم تنتهِ حتى الآن.

أما حياتي كمراهق، في فرنسة، فلقد أضحت أغنى، وأكثر حركة، وكبرت مهمّاتي أكثر فأكثر...

لم نعد نراك، لحسن حظنا، وهذا ما كنت أقوله في نفسي. لأن الزيارات النادرة التي قمت بها، مدعياً رؤيتنا، كانت تقززني، وإني أعترف بذلك.

كان تصرفك معنا، وسلوكك مع أمي يثيرانني. كنتَ تريد

قطعاً أن تعطينا عنها صورة "غريبة"، سلبية، وهذا ما كان يزيد احترامي لها ويضاعف إعجابي بها. ذلك أنني بدأت أفهم الأمور جيداً ؛ صرت أفضل إدراكاً لك!

ففي ومضة عين قطعتُ عتبة الطفولة نحو سن أصبحتُ فيها أكثر رشداً، وأكثر نضجاً، وأقل طفولة: إنها سن المراهقة حيث تتم أمور الحياة بطريقة مختلفة.

غالباً ما تساءلت هل كنتَ تُدرك هذا التغير وهذا التحول الذي حدث بسرعة فينا، بعيداً عنك!

لكن الجواب لم يأتِ.

لقد نسيت أن الدولة هي التي تُعيلنا لا أبونا الذي من واجبه أن يكون وطننا ومثلنا الأعلى.

فمن قراءاتي المتنوعة، تعلمت فيما تعلمت، أن "الفرنسي" و"متعدد الزوجات" يتنافيان. هذا بلد يحترم ذاته! إلّا أنك، وإن كنت فرنسياً لم تكف عن كونك متعدد الزوجات.

إنك تتصرف تصرف محتال لتتهرب من واجباتك. اختبأت هناك وتصرفت بهوية أخرى، هوية دينك، وقيمك القاتلة التي تخذلني وتضرني وتؤذيني.

وذلك بالضبط بسبب حيلتك في تعدد الزوجات!

لم تَقُم إلّا بكشف وجهك الذي أخفيته تحت قناع ديماغوجيتك البحتة، ولقد ابتعدْتُ نهائياً عن حيلك الدنيئة.

إنني أرفض الانتماء إلى قيمك ألا وهي الخبث، والرياء، والكذب، والرذالة، والأذى.

أريد أن تحتفظ روحي بالعلمانية، وكذلك قلبي. والاثنان مصممان على الابتعاد عنك، ليتميزا عن سلطتك الذكرية والاستغلالية.

اليوم، وأنا في الخامسة عشرة، وطوال أربع سنوات كاملة، وأنا بعيد عن الوطن، فإنني أحرص على شقتنا الصغيرة الفرنسية المتواضعة التي تحمينا من عواصفك المباغتة والذكرية؛ وحيث نجد أنفسنا، على الرغم من كل شيء، في شرنقة يدفئها حنان أمنا، ونحن لا نفارقها، في بيت أسرة جديدة، أنت غائب عنها حيث يعم السلام.

هذا السلام الذي زعزعته بحضورك المتكرر والمزعج.

هنا لا توجد يد رجل ترتفع على أمنا لتهددها! ولا توسلات أخت صغيرة، في الثامنة من عمرها، تجثو وقد ارتاعت من عيني الذئب، وهي ترجو أن تخفض تلك اليد الحانقة التي مزقت طفولتنا ودنست ألمنا.

36

يا للجبن! أن يستغل رجل قواه الجسدية لينهار على كائن ضعيف، أدنى منه قوة: زوجته.

أن يطلق دوافعه المكبوتة على كائن ضعيف لا حول له ولا قوة: هذا ما أسميه بالنذالة!

حين أتيتَ إلى فرنسة، لتخضع إلى حد ما إلى "حكم" محكمة الاستئناف، رحت تملأ رأسينا (رأسي ورأس أختي الصغيرة) بترهات وباعترافات دنيئة وكاذبة، وقد استحوذت عليك فكرة واحدة: إقناعنا بأن أمنا هي "السبب" الحقيقي لرحيلك؛ وبأنها قد لطخت صورتك في رؤوسنا (بصراحة، يا أبي، كيف يمكن تلطيخ صورة كانت قذرة وباهتة أصلاً؟).

الوقت يمضي لكنه غالباً ما يترك في النفس ندباً، وجروحاً وعلامات زرقاء لا تُمحى.

مضى عام، عامان، أكثر من أربعة أعوام ولم تتغير! منذ رحيلنا في آب 2006 على ظهر المركب العسكري الذي أعاد الرعايا الفرنسيين إلى الوطن.

كانت حينذاك كلمة "فرنسي" تعسر على فهمي. أما اليوم وبعد مضي أربع سنوات، أدركُ مدلولها تماماً. أراها تزخم

بالمعاني والقيم: إنها معاني الجمهورية وقيمها... وقد ضربْتَ بها عرض الحائط حين اتخذت لك زوجة ثانية ولم تتحمل مسؤولياتك ولا تزال تنتهك تلك القيم.

إن فرنسة، بلد أمي، ليس بلد مسقط رأسها بل البلد الذي تبناها، والذي أحسن التعرف عليها أفضل مما فعله بلدها الأصلي. إذ أمضت في فرنسة أكثر من نصف عمرها؛ وصلت إليها وهي في الخامسة عشرة لتتابع دراستها حيث تعرفت عليك وأحبتك. فدراستها فرنسية، وكذلك تربيتها. إنها لا تنكر جذورها لكنها لا تنوي العودة إلى بلدها الآخر، بلد الأصل الذي تحكمه قبضة من القوانين المعادية للمرأة.

إنها تهرب منه كي لا تقع عليك.

تتجنبه لأنك تمثل ذاك البلد!

قررت أن تبقى في "جمهوريتها" التي تعرف كيف تُنصِف الفرد وتعيد إليه كرامته؛ تلك الجمهورية التي تُحسن مداواة جراح النساء اللواتي سُلِخَت جلودهن من أزواج بلهاء ومن ذكور شاذين، والتي تهتم بالبراءة الملتاعة وبالطفولة المعذبة.

قررت البقاء في جمهوريتها وهي تفرد علينا جناحي حنانها ومحبتها، بانتظار أن ترانا نطير بأجنحتنا الخاصة...

37

إنني اليوم في الخامسة عشرة، وأختي في الثالثة عشرة! عمر في منتهى الرهافة، في مرحلة المراهقة حيث يتكون الفرد الهش وتتبلور شخصيته. إنها السن التي يحتاج فيها الأنسان بشكل ملح إلى صورة الأب، إلى مجد الأب، إلى حنان الأب.

ألم يكن في استطاعتك يا أبي! أن تؤخر بضع سنوات شطحاتك ونزواتك، حتى يشتد ساعدنا لنصبح قادرين على أن نطير وحدنا؟

ألم يكن في استطاعتك أن تُسكِت غرائزك بعض الوقت لتبقينا في ظلك وتجعل منا مراهقين قادرين على مجابهة مشاكل الوجود؟

خمسة عشر عاماً وثلاثة عشر!

هل تدرك ذلك، يا أبي؟

أتدرك مرور الزمن المدوخ؟ الأطفال الرضع، ثم الأولاد الصغار كرأس الملفوف، كبروا سريعاً، ونضجوا سريعاً. فأنا الآن شاب، وكذلك أختي أصبحت شابة صغيرة استهواها الإنترنيت وبدأت تتزين وتعتني بهندامها!

إنني في المدرسة الثانوية، يا أبي، وأختي في الصفوف الإعدادية. أتدري ذلك؟ هل تتابعنا؟ أتتساءل أحياناً في أية صفوف نحن؟ في أية مرحلة دراسية؟ وإلى أية درجة وصلنا؟

ما عمرنا هذه السنة؟

ما كان عمرنا العام الفائت؟

حتماً لا.

أقول حتماً لأنني أتذكر الآن طرفة القميصين اللذين أرسلتهما إلينا من تركية، حيث ذهبت مع ساحرتك في رحلة جماعية (هل فعلت ذلك لترينا أنك تستطيع دائماً أن تقوم بأسفار على عكسنا؟).

حدث ذلك العام الماضي.

بسلوكك الشائن دائماً!

تَذَكر ذلك.

عفواً، تسلَّمنا منكما (من زوجتك السرية التي ترغب أن تمسك زمام الأمور، وتريدُ أنت فرضَها علينا كيفما كان) قميصين، واحداً لي وآخر لأختي الصغيرة.

يا لخيبتنا في ذاك اليوم!

والشيء المثير للسخرية كان في المقاييس، يا أبي!

إن القميصين اللذين أهديتنا إياهما كانا أصغر بأربعة مقاييس (أربعة يا أبي!) أدنى منها؛ كانا يصلحان لأطفال في السابعة والتاسعة بينما كنا في الحادية عشرة والثالثة عشرة.

كنتَ متأخراً أربعة أعوام عن ركبنا!

وعلى الرغم من أنك تتقن الحساب إلّا أنك لست رياضياً بارعاً.

لقد بلغ بك الأمر أن نسيت أعمارنا وهذا ما أثار استنكاري إلى أقصى حد. أوقفتها وفق رغبتك.

أنت تخشى مجابهتنا كباراً.

ارتاع جبْنك من التعرض لشجاعتنا، وجرأتنا، وحكمنا.

وهذا واضح.

إنك متمحور على ذاتك، لذا تعجز عن أن تفكر في من جئت بهم إلى هذا العالم .

إن تلك الهدية الهزيلة والتي لا معنى لها (الوحيدة التي تسلّمناها منك في ذاك العام)، تبعتها في العام التالي هديتان أخريان.

كنا قد طلبنا منك لعيد ميلادنا جهاز DVD وساعة يد. استلمنا بدل جهاز DVD أسطوانة CD (يستطيع طفل صغير أن يُدرك الفرق بين الاثنين!) وبدل ساعة عادية، كانت ضرباً من ساعة لعب برسوم وردية وزرقاء وذات نوعية رديئة لم نلبسها قط.

إن ما يقزز النفس في كل ذلك هو أن تلك الساعات تلائم (في أحسن الحالات!) أطفالاً لم يبلغوا السادسة.

عاودك فقدان الذاكرة!

وتلك جريمتك!

ثم أرسلتَ الطرد من بريد باريس (من أحد ما أو ربما

منك كي لا تأتي حتى مدينة إيكس لترانا). وقد أرفِقَت به رسالة بالفرنسية من توقيعها. كانت رسالة لطيفة بمكر ورديئة الأسلوب تحوي كثيراً من الأخطاء الإملائية والنحوية. (لم تكتفِ بفقدان الذاكرة لكنك ظهرت، هنا أيضاً، معلماً فاشلاً: أسأت تعليمها الفرنسية وأحسنت تعليمها النفاق. إنه مجال تبرع أنت فيه!).

كيف سمحتَ لها أن تكتب لنا وأن تخدعنا، تلك السارقة التي أرادت أن تحتل مكان أمنا؟

أنسيت أنها قد عاملتنا في لبنان بقسوة امرأة أب حقاً؟ أنسيتَ مناوراتها واحتقارنا؟

أذكِّرك مرة أخرى بقول الأغنية: "ليس للإنسان إلّا أم واحدة"!

ستُذكِّرني بسخرية أنني أشكو من عقدة أوديب التي تملي عليَّ ما أقوله محددة كلماتي وسلوكي نحوك.

كلا يا أبي، لستُ "بقاتل والده" كما يدعي المحللون النفسيون. لا أؤمن بهراء يونغ، وفرويد وجماعتهما. لا يقتل صبي أباه. إنه يحكم عليه وينتقده ويلومه حين الضرورة، كما أفعل الآن، وهو يحتفظ في أعماق قلبه، رغماً عنه، بتلك الأواصر البيولوجية التي لا تنفك ألا وهي روابط الدم.

غالباً ما تدفعنا أمنا (التي تتهمُها ظلماً بأنها تُحرضنا عليك) إلى الكتابة إليك، وإبقاء العلاقات، والحفاظ على

الروابط، لأنك بالضبط "والدنا "، أبونا بالدم، ولأننا نحتاج إليك، إلى صورتك!

وكنت أنا وأخي نرفض الاتصال بك.

و... اسمح لي أن أعْلِمَك شيئاً مقتنعاً به: إذا كان لنا مجرد والد بيولوجي فهذا لا يعني بالضرورة أن يكون لنا أب يتوجب علينا أن نحترمه ونحبه. قرأت قصصاً كثيرة عن أطفال كان لهم والد ولكنه ليس أباً .

وكان لهم والدة ولكنها ليست أماً.

تصبح الجراح الداخلية محتمة في ظروف كهذه.

38

غالباً ما تجعل تلك الجراح الإنسان "يكبر"، مهما كان قدرها وعمقها، كالتي رافقت طفولتي، وترافق الآن مراهقتي.

أقول لنفسي أحياناً إن عليَّ ألّا آسف مطلقاً على النُدب التي في روحي، وكذلك على الجراح المفتوحة، وعلى آثارها: فالألم يهذب النفس ويعلم الحكمة، والحكمة تعلم أسرار الوجود.

أما ألمي، فعلمني أن أحسن معرفتك لأفهم الحياة بشكل أفضل. أرغمني على مواجهة الواقع لأستخرج منه الحقيقة.

والحقيقة تكمن هنا: كلما تعمقت معرفتي بك، اتسع اكتشافي لك، واشتد تقديسي لأمي وكبرت محبتي لها. إن احترامي لها وإعجابي بها يتزايدان في كل مرة تعودُ أنت إلينا لتهتم بنا وتتحدث عنها. تشي بها سعياً لتشويه صورتها في نظرنا ولتسويدها.

لكن ذلك لا يكف عن رفع شأنها وتساميها.

هنا، يتضاعف إعجابي بهذه الأم المحبة، واحترامي لها. أمي لا تعرف البغضاء وتتألم بصمت؛ يزداد احترامي كذلك لتلك النسوة المتفانيات واللواتي "يبْعثنَ الطمأنينة" وهن

ينظرن إلى أطفالهن كأنهم أنصاف آلهة. "أصحيح أن الآلام العظيمة خرساء؟"

طبعاً، ولأنها "عظيمة" فإنها تفصح عن ذاتها بصعوبة.

علمتني الأعوام التي مضت أن لا شيء يعادل قلب الأم إلّا في حالات نادرة كحالة مثيرة الفضائح التي تعيش معك.

لا تقل لي إنك لست على علم بذلك. أنت تعرف الوضع جيداً، هيا! حين انفصلت عن زوجها الذي أتى قبلك، ولم تكن تريد الاحتفاظ بطفلها الصغير الذي لم يبلغ عاماً من عمره، "أعطته" لزوجها السابق كي تربيه جدته أم أبيه مقابل مبلغ كبير من المال (وعلاوة على ذلك ساومت على المبلغ)!

أما هي، أمه التي ولدته، فلم تربه البتة، ولم تنشئه، ولم تقم بواجبها الأمومي...

لكن هذه القصة التي تحط من قيمة النساء لا تمنعني من أن أفكر بنساء أخريات بذلن حياتهن للبقاء بالقرب من أطفالهن، كما فعلت أمنا.

فمن خلالها، أكتشف قلب النساء وأحرص على تبجيلهن، هؤلاء النساء اللواتي يهبنّ الحياة والحب؛ تلك القطط القلقة على الدوام من أجل صغارها.

كل يوم يمر يعلمني شيئاً عنك وعنها: من واجبي أن أحترم بقدسية تلك التي وهبتني الحياة والتي لم تتخلَ عني (كما تخليتَ أنت عنا) حين كنتُ في أمسّ الحاجة إلى مثل أعلى. إنها تساعدنا في كل شيء، وتدعمنا في مساعينا. فهي

سائقنا، وطباخنا، والخادمة التي تنظف البيت، وأستاذنا، ومحللنا النفسي، وممرضتنا، ومراقبنا، ومستشارتنا، ومواسيتنا وينبوع حناننا.

ماذا أستطيع أن أطلب أكثر من ذلك؟

أما أنت، فلقد تخليت عنا، بكل بساطة وبكل قسوة. لقد حطمت فينا الشعلة المتقدة التي كانت تحيينا.

فالتخلي عن أطفاله الصغار عمل لا يقوم به إلّا الحيوان وحده (وليس دائماً! الذكر وحده) الذي يستطيع ذلك. أتذكر قطتنا في لبنان؟ حين ولدت عدة قطط؟ كانت تحميها من والدها الذي يأتي خلسة في الليل ليأكلها.

لا أحب أن أقارنك بآكل صغاره هذا؛ لكن الفرق ليس شاسعاً.

بينما كانت "مفترستك" تأكلك، كنت أنت تأكل صغارك.

إن هذه المقاربة تجرحني في اختلافها وتشابهها.

لكن الأمور تجري هكذا.

في برنامج مدرستنا الثانوية مسرحية لموليير "مدرسة النساء". سأكتب ذات يوم على طريقتي "مدرسة القطط" مستلهماً من قصتنا العائلية دروساً لا تنتهي عن حنان الإناث وعن وحشية الذكور الذين ينفردون بقلوب تحوي الشر في أعماقهم.

إنني لا أقول ذلك لأزعجك يا أبي. لا أنوي أن أجرحك. أعرف أن نظرتي إلى الأشياء لا تروق لك. أنت

الذي كنت تحاول، حين تأتي إلى فرنسة أن تُحرضنا على أمنا، وأن تستفزنا ضدها، وأن تعطينا عنها صورة مهزوزة، ومشوشة، وقاتمة. كنتَ تتصور أنها هي التي جعلت منك "أباً غير مسؤول". ونسيت قرار قاضي الشؤون العائلية.

لكنك، يا أبي، حقاً غير مسؤول. فالوقائع هنا، أمام عيوننا، وفي قلوبنا، ولسنا بحاجة إلى أمنا لترينا إياها أو لتشرحها لنا. إن ما يحدث هو العكس: غالباً ما تقترح علينا أن نطلبك بالهاتف، وأن نحدثك بلطف (ليس لإدخال السرور إلى قلبك، لكن من أجل سلامنا الداخلي). وكنا نرفض القيام بذلك.

كانت لنا أسبابنا الخاصة.

وكما يقول المثل "للقلب أسبابه التي يجهلها العقل"؟ كلا، يعرف عقلنا الأسباب تماماً.

أحاول أن أشعر أحياناً بشيء من الأسف لبعض الألم الذي سببته لك.

أتذكر ذلك اليوم.

كنت سأبلغ الرابعة عشرة حين اختفيتَ. لم تتحمل أي التزام نحونا.

لقد جُرِحتُ فتركتُ جروحي تتحدث.

لذا كنت قاسياً معك في آخر مكالمة هاتفية. وجهت إليك كلمات فظة وسوقية. كان عليك أن تتساءل عن السبب: لمَ يُظهر شاب صغير كل هذا الاحتقار لوالده؟

"إنك لست سوى معتوه... لو كنتَ أمامي الآن، هنا، لسددت بقبضتي ضربة إلى وجهك تكسر فكيك" هذا ما قلته لك حرفياً بالهاتف.

هذا قاسٍ! قاسٍ! أليس كذلك؟

إلَّا أنني استوحيت ذلك من تصرفك!

وأسوأ ما في الأمر هو أنك قد أرسلت إليَّ رسالة وقعتها بكلمة "المعتوه"!

كان عليك ألَّا تفعل ذلك...!

لقد وقَّعْتَ على هفوة أخرى من حماقاتك من دون زيادة ولا نقصان. شأنك دائماً!

منذ ذاك الوقت حل سكون عظيم. كستارة. إنه صمت التماثيل.

إلَّا أنني كنت أعرف تماماً أن تلك الكلمات لا تُقال لأب، وإن كان فاقد الشعور بالمسؤولية. ليست \الشتيمة من شيم الصبيان عريقي الأصل. لكنك بالغت في إهانتنا، سواء بأفعالك أو بأقوالك، حتى إنني لم أعد أعرف ما أقول، وما أفعل لأرد على إهاناتك.

"بقدر ما يكون المُهين عزيزاً، تكون الإهانة أكبر": تعلمت هذا أيضاً في المدرسة. لكنني لا أدري إذا كان لبيير كورنيّ أب على شاكلتك.

إن الكلمات، يا أبي، مواسية طيبة.

فهي تشفي. سواء أهانت الآخر أم لم تهنه، على الأقل لا نترك أحداً يسلخ جلدنا من دون مقاومة أو رد فعل.

لا أدري إن كان عليَّ أن أشعر ببعض الندم لأذى آخر سببته لك، في غفلة عنك. إنها كلمات، وكلمات... كردود أفعال.

كنتُ في العاشرة، عمر لا يكتمل فيه بعد نضج الإنسان ليُسأل عن كلماته!

في لبنان، حين تخليت عنا لتقيم عند تلك المرأة، وفي يوم "زفافك" الذي أشهرتَه وتفاخرتَ به (وأنت في التاسعة والخمسين من عمرك، يا أبي؟)، قلتُ حينذاك لأمي: "كنْتُ أفضل أن يكون أبي ميتاً!".

بقيت أمي مذهولة.

صعقتها جملتي. كانت تعرف أن سبب ذلك هو الألم الذي أفعم رأسي وغمر قلبي. لاشك أنها قد تألمت، هي أيضاً، حين أدركت مدى هذا الألم المحرق الذي ألهب قلب صغيرها.

وهذا الألم له مبرراته! فسلوكك المستهتر، وأنانيتك كانا يسحقانني.

هل تتصور ذلك؟

اختار ابن الستين أن يحرم أطفاله، ويفتت أسرته ويحطمها، في سبيل متعه وملذاته؟

فاق هذا الحمل طاقة صبي في العاشرة.

لا أدري إذا كانت الكلمات تعني أقل من مضمونها، أو تعبر أكثر، حين يلفظها شاب صغير بريء!

سأنظر ذات يوم في الإنترنيت عما يفكر السيد فرويد في ذلك. بالطبع له رأي مطَّول.

إن ابنك الفرنسي، أي أخي الكبير (غير الشقيق)، وقد بلغ بك الكرم (أو الضلال... لم أعد أعرف!) أن دعوته مع رفيقته إلى حفل زواجك السمج، فأظهر رد فعل على أنانيتك الفاضحة وعلى استهتارك الصارخ محتفظاً في أعماقه بصورة بشعة عنك.

قال لي ذاك اليوم بشيء من البراءة وبكثير من الحزن: "لنا أب شائن!" وإنني أذكِرك بذلك.

لم أفهم حينذاك ماذا يعني بدقة بكلمة "شائن". عرفت بالتالي أنها إهانة كبيرة، مخزية ومعيبة. فلأخي من والدي البالغ ستة وعشرين عاماً كذلك أسبابه ليبصق الشتائم.

إن المآخذ على الآخر لها مبرراتها في أغلب الأحيان، شأن المخالب، فهي تجرح الآخرين وتعتدي عليهم.

39

جعلتَ من كلينا صبيين محرومين مُنعتْ عنهما مثالية الأب وحُظِّرت عليهما، بل الأسوأ من ذلك، أن صورة الأب كانت مهزوزة. كنا أطفالاً تعساء يحتاجون إلى "صورة"! لكنك... لم تترك لنا أي رابط حتى نختلق لك صورة حسنة.

كنَّا نستطيع أنا وأنت طبعاً أن نكون رفيقين رائعين!

لكن أفعالك المخزية التي لا تصدر إلَّا عن مراهق، وقسوتك التي تتصف بها القلوب المريضة، ومظالمك تجاه أمي، أي تصرفاتك كجلاد، ولامبالاتك وعدم شعورك بالمسؤولية قد منعتني من أن أكون رفيقاً طيباً.

كلفني ذلك جلسات في عيادة للطب النفسي.

أزور مرة في الشهر محللة نفسية، بناءً على طلب المشرفة الاجتماعية. لكن ما لا أسامحك به (وإن المحللة النفسية هي التي جعلتني أقوله) هو عزمك وإصرارك على اعتبار أمي مصابة بمرض نفسي. تصورْتَ أنك قد تقع على قاضٍ مرتشٍ مثل قاضيك وصديقك اللبناني.

لكننا في فرنسة، يا أبي!

كن مطمئناً: أكدت المحللة النفسية أننا أطفال

"أسوياء"، وأننا لا نتعرض لأي تأثير من أمنا التي وصفتها في المحكمة، باعتبارك كاذباً بارعاً، بأنها مصابة بمرض نفسي يدعى الوهن العصبي أو "النورستانيا". وأوصت المحللة النفسية بإيقاف جلساتنا النفسية لأننا لسنا في حاجة إليها.

غمرني هذا القرار بطمأنينة عارمة وشحنني بنوع من العداء نحوك.

أعرف أنك تفضل أن تكون محللتنا النفسية قد اكتشفت لدينا بعض البلبلة الذهنية كي تستغلها كحجة. ولقد أثرْتَ، في المحكمة مشكلة "عدم كفاءة " أمنا لتربيتنا.

وكما أخفق مخططك الشيطاني الأول في إثبات "جنون" أمنا، أخفق الثاني أيضاً عن "نفسيتنا المضطربة" وعدم كفاءة أمي.

من أين أستقيت كل تلك الأفكار الجهنمية، وكيف استطعت أن تلفق كل تلك الأكاذيب، عن المرأة التي شاركتك حياتك وصنعت معك أجمل مشروع في العالم ألا وهو إعطاؤك أطفالاً؟

لحسن الحظ، أدرك القاضي تماماً أنك لا تختلف عن هؤلاء الأزواج الذين يلفقون كل أنواع الذرائع التي تخدم قضاياهم اللاأخلاقية ليحطموا زوجاتهم، وإن كان هذا التحطيم يتم من خلال أطفالهم. وبالفعل، فإن المرضى

المختلين هم هؤلاء الأزواج إذ تظهر لديهم أعراض أمراض نفسية حقيقية.

ولأفهمك، بدأت أقرأ مؤلفات في علم النفس تبحث في علاقات الأب والابن وتتحدث عن تأثير حضور الأب الفيزيولوجي والفعّال.

يحب الصبي أن "يتماهى بوالده"؟

لكنني أرفض ذلك، كلا.

وإن كان علماء النفس يدعون أن الأب هو نموذج تماهي الصبي الذي يريد أن يُشبَّه به، ويَتَقَمَصَ نفسيته.

لك أن تصدق ذلك أو لا تصدقه: إنني أرفض الانصياع لتلك الفكرة لأنها تُغفل صورة الآباء السيئين في نظر أبنائهم. فهناك آباء ليسوا "بالقدوة" للتشبه بهم، كما ليسوا "بمُثُلٍ عليا" للسير على خطاهم؛ إنهم آباء قست قلوبهم كالحجارة، وجمدت كالجليد، مثل قلبكَ.

منذ عدة سنوات، قالت جاكي لأمي إنني أشبهك؛ بلون الشعر، وبرونق الوجه، وبالنظرة...

وهذا ما أثار سخطي وغضبي! ركضت إلى غرفة الاستقبال، غرفة استقبالنا الصغيرة في مسكننا الشعبي (HLM) وأخرجت صورة عائلية احتفظتْ بها أمي بين صور أخرى.

تفحصتُها بدقة. بكل تفاصيلها.

رحت أبحث عن ذاتي في وجهك.

في خطوطك وتعابيرك. في بسمتك وفي نظرتك.

ليس هناك أي شبه في النظرة!

نظرتك مواربة، هاربة، وتقطر حقداً.

من العسير تبادل النظر معك.

إنني أرفض التشبه بك، يا أبي، جسمياً، أو خلقياً، أو نفسياً، أو أي شيء آخر...

لاسيما في عقليتك.

كلا، لن أشبهك.

لن أضحي بأطفالي.

لن أتخلى عنهم.

لن أقايض طفولتهم بأعظم متعة في العالم.

لن أقايض براءتهم بالرذائل.

كلا، وألف كلا. لن أشبهك.

لن أملأ قلبي حقداً لأحطم المرأة التي أختارُها لتكون أماً لأطفالي.

ولن أشبه إلّا ذاتي، أشبه ذاك الطفل الذي عركه الألم وصاغته المحن وشذبته؛ فمده التجرد والحقد بقاعدة سلوكية صالحة ستوجهُه في الحياة.

إن ذاك الصبي سيتساءل طوال حياته: "ما نفع أب إذا لم يحم أطفاله ويساعدهم كي تتفتح شخصيتهم ويؤمن لهم النمو والازدهار؟ ".

ماذا فعلت من أجلنا سوى أنك أعطيتنا اسمك؟
لقد احتفظت بفكرة تقليدية عن الأب وهي فكرة السلطة،
والسيطرة والحرية الذكرية غير المشروطة... إلخ.
لكن الأزمنة قد تغيرت.
وتغيَّرَ الآباء أيضاً.

40

ادعيتَ ذات يوم في مساعيك لتنتزعنا من أمنا أن صبياً يعيش مع أمه قد يقع في "شذوذ جنسي".

كنت تعني أن أصبح لوطياً.

كلا يا أبي. هنا تخطئ أيضاً، فعلى الرغم من حقدك العظيم تجاه أمي بتحريض من امرأة لم تعرف قط التضحية والتفاني، والتي غيرتك رأساً على عقب، فإن سلوكك الهمجي قد أدى إلى تأثير إيجابي عليَّ. إن مواقفك الأبوية السلبية والعدائية قد دفعتني إلى تكريم الأمهات اللواتي يشبهن أمي.

بحثت عنك وأنا طفل.

واكتشفت وجهك الحقيقي وأنا مراهق.

يا لقبحه!

كلا، لا أريد أن أشبهك على الإطلاق.

سأصبح رجلاً، لكنني مختلف.

أجل مختلف عنك!

اليوم سنواتي الخمس عشرة قد أتمت مسارها.

دقَّتْ سنواتي الخمس عشرة!

عيد ميلادي؟

أقامت لي أمي بهذه المناسبة حفلة لائقة.

بالطبع لم تكن حاضراً، شأنك في كل أعياد ميلادي اللبنانية.

يُذكرني هذا العيد بأعياد ميلادي الأخرى.

لم تكن الحفلة مع الأسف في حديقة طفولتنا اللبنانية التي لم نعد نراها ثانية على الإطلاق؛ ولا في حضور الساحر ماكس الذي كان يسلي الرفاق ويدهشهم. ولا في الفيلّا البيضاء التي كنا نسكنها في الماضي ونشتاق إليها الآن كثيراً، تلك الفيلّا التي عايشت طفولتنا الجميلة.

كلا!

كانت الحفلة في مكان آخر، في هذا البلد البعيد، في شقتنا الفرنسية الصغيرة والمتواضعة التي تختلف اختلافاً واضحاً عن منزلك اللبناني الفخم ذي الطابقين والذي تسكنه حالياً مع الساحرة. ففي شقتنا الحميمية المؤلفة من ثلاث غرف، بإيجار معتدل، يحمينا ويحترمنا، حيث يطيب العيش وسط حنان أمنا وحبها الذي يغلفنا فيجعل أجنحتنا تنبت بشكل صحيح، مثل شجرة تنمو وتترعرع بشكل سليم في محيطها الطبيعي.

نسعى إلى أن نبني أنفسنا من جديد، ونفوسنا أثقلتها الجراح وأرواحنا عصرها الحزن، نحاول أن ننتصب، بفضل

أمنا وبفضل العدالة الفرنسية التي دعمَتها حين نصَرَتْها على مظالمك.

بقي سؤال غريب يراود فكري باستمرار: لماذا يعمد بعض الآباء إلى اتخاذ أولادهم وسيلة يثأرون بها من زوجاتهم؟ لماذا؟

لا أملك حتى الآن الجواب الصحيح. أما جوابي فبسيط: لأن هؤلاء الآباء الأشرار يعرفون أن الطفل هو سبب وجود أمه وروحها. فيرغبون في خنق تلك الروح.

من يستطيع أن يقول أين يبتدئ حب الأم وأين ينتهي. هذا الحب غير المشروط الذي لا تعرف أن تغدقه إلّا الأم؛ هذا الشعور السامي المكون من العطاء والذي لا يمكن شرحه؟

وهذا الحب بقدر ما يقربني من أمي، يبعدني عنك، يا أبي. هل تعلم أن شعوراً بالخجل ينتابني أحياناً من انتمائي إلى جنس الذكور! إن هؤلاء الرجال الذين يذلون النساء ويدنسون مشاعرهن النبيلة يثيرون الاشمئزاز في نفسي والغثيان!

لقد انتهكت قدسية مأساتنا العائلية بلامبالاتك، وبوقاحتك، وبسكوتك...

تلك موهبتك في وضع الخطط...

كنت أتجنب، وأنا في الحادية عشرة، التحدث عن مشكلتنا، على العكس من أختي الصغيرة؛ ربما لأنها لم تكن

تعي الوضع الحقيقي؛ ربما لأنها كانت أصغر من أن تدرك الواقع.

إن سلوكك نحونا، وعذاب أمنا، وهشاشة وضعنا، قد روَّعني كل ذلك وصدمتني تلك المشاكل، فانطويت على ذاتي وهذا ما كان شأني في الماضي، فلم أجرؤ على مواجهة تلك المعضلات. كنت أخشى أن يتسع الجرح إذا ما أثرتها.

لكنني تعلمت شيئاً فشيئاً، مستوحياً من أختي الصغيرة، أن أتحدث عن ذلك مع أمي، ومع جدتي وحتى مع رفيق لي في الصف والذي كان في وضع مماثل لوضعي.

41

أما اليوم، فإن التحدث عن ذلك يُريحني.

إنه يرغمني على مجابهة الأمور وتفحّصها من زوايا مختلفة. لم أعد أهرب منها. وأختي الصغيرة، تلك المنفتحة الرائعة، تناقش تلك الأمور بحرية، مع كل الناس، بدون أي تحفظ أو تعقيد. ولقد فاجأتها مراراً " تنتقد وتذم" مع رفاقها الصغار.

إن التحدث عن المشكلة يقلل من خطورتها، ويبدو أنه ينتزع عنها طابعها السري.

استطعت أمس أن أسمع هؤلاء الأطفال المعذبين. دفعني حوارهم إلى التفكير ملياً. فالرجال قساة. أعني بعضاً منهم وهم كثرة!

أدارت أختي الحديث البريء. كانت المصيبة ذاتها تجمعهم وتدفعهم إلى الحديث. أنقل إليك ذاك الحوار عله يُعلّمك شيئاً:

أختي: هل أبوك هو الذي اشترى لك هذا؟

سفيان: تقصدين ساعتي؟ كلا. إنها أمي. هجرنا أبونا من دون أن يترك لنا قرشاً... ليتزوج ثانية.

أختي: آه! مثل والدي! بقي أبي في لبنان ليتزوج من ساحرة... لكنه يتزوج للمرة الثالثة! يمكنك القول: لم يعد لنا أب... أي إلى حد ما... لقد تخلى عنا...

سفيان: لقد رجع أبي إلى المغرب ليتزوج من الجارة... إنه ثاني زواج له... يقولون عنه إن له زوجتين...

أختي: يتزوج أبي للمرة الثالثة. إنه مريض. وجِدّ بالون في رأسه وقد انتفخ بالهواء. لكنه لم ينفجر...

سفيان: أبوك؟

أختي: البالون يا أبله! إذا انفجر، سال الدم فيموت الإنسان.

سفيان: لكنه لم يمت؟

أختي: كلا، قلت لك، لم ينفجر البالون!

سفيان: لكند يتزوج مع ذلك...

أختي: ... على الرغم من ذلك...

خيَّم سكوت للحظة قصيرة، كما لو كان الرفاق يحفرون في الكلمات التي أتوا على لفظها. ثم جاء كونسطنتان لينضم إليهم... رنَّت في الجو بعض ضحكات بريئة... ثم عاد الحديث ثانية... كأن شيئاً لم يكن. حلت البهجة محل الحزن.

يا للطفولة!

باشرت أختي الحديث. أتساءل كيف تجد الكلمة المناسبة:

أختي: الصيني الصغير حزين اليوم...

كونسطنتان: لست صينياً! إنني فرنسي!

أختي: لكن أنظر إلى وجهك، إن عينيك مقطَبتان...لمَ تنكر أصلك؟ (يا الله! ما هذه الأناقة!) ما أجمل الصيني!

كونسطنتان: هل هذا صحيح؟ (يبتسم). لكنني لا أريد أن أكون مثل أبي! لقد تخلى عنا ليهرب مع معلمته[8]...

أختي: ... معلمة المدرسة؟

كونسطنتان: لكن كلا... ألا تعرفين ما تعني هذه الكلمة؟ إنها صاحبته...

أختي: هل هي صينية؟

كونسطنتان: أجل... لكن أمي أجمل...

أختي: لقد رحل والدي مع ساحرة إيرانية. قد أصابه مرض خطير... إنه متعدد الزوجات. بقي شهراً في المستشفى...

كونسطنتان: يا لك من بلهاء! إن تعدد \الزوجات ليس بمرض...

أختي: ماذا إذن؟

كونسطنتان: هذا يعني حين يتزوج الرجل مرات كثيرة...

---

(8) Maitresse بالفرنسية لها معنيان: الأول خليلة أو عشيقة والثاني معلمة في الصفوف الابتدائية. (المترجمة).

أختي: صدقت. يتزوج أبي للمرة الثالثة. كأنه مريض! (تضحك)

كونسطنتان: لكن أبي رحل إلى الصين، مع عشيقته، بدوننا. كنا نستشيط غضباً أنا وأخي. لكن أمنا هدأتنا. قالت لنا إنه سيعود...

أختي: وأنا أقول لك إنه لن يعود على الإطلاق... مثل أبي!

كونسطنتان: هناك في الصين، يعمل ويربح مالاً وفيراً. إن والدي رئيس منشأة ضخمة، لكنه... لا يعطينا شيئاً!

أختي: أبوك الصيني؟ مثل أبي اللبناني! فهو طبيب عظيم لكنه لا يعطينا قرشاً واحداً! وذلك منذ سنوات كثيرة...

كونسطنتان: يا للغرابة! أليس كذلك؟ أنا وأنت في الوضع الاجتماعي نفسه (يا للدهشة! كذلك!).

سفيان: نحن ثلاثتنا... لا تنسَ ذلك!

تدخل طفل ممتلئ الخدين قليلاً:

سامي: لي والدان رائعان. إنهما ثريان. يشتريان لي كل شيء...

أختي: إذن فأنت لا تسكن في شقة شعبية مثلنا!

سامي: كلا. لدينا بيت جميل جداً بقرميد وحديقة...

أختي: حديقة فيها أشجار مثمرة؟

سامي: أجل...

أختي: شجرة خوخ...؟

سامي: طبعاً!

أختي: يا لك من محظوظ! ألا تريد أن تصحبني يوماً إلى حديقتك؟

سامي: طبعاً! كلكم مدعوون!

كونسطنتان: نحن لا نسكن منزلاً شعبياً، ولكن شقة اشتراها والداي معاً على امتداد عشرين عاماً. وإن أمي هي التي تسدد الآن كل الأقساط. أما هو فلا أثر له...

أختي: أبوك الصيني؟

كونسطنتان: أجل. فأمي هي التي تدفع له أجرة بيته لأنه يدعي أنه عاطل عن العمل وفي الوقت ذاته يشتغل في الصين. يسافر كثيراً. يأتي إلى فرنسة حين توجد دعوى...

أختي: إننا إذن في الوضع السيء عينه! باستثناء أننا نسكن في شقة شعبية، لكنها ظريفة... هذا كل ما في الأمر...

سفيان: يا للمصادفات الغريبة! إن لنا الظرف الاجتماعي ذاته!

أختي: يجب أن نقول "الوضع " يا صغيري سفيان. ويمكنك أن تقول إن لنا الوضع النفسي عينه! ألا تتردد على المحلل النفسي؟

سفيان: نعم! أرادت المشرفة الاجتماعية ذلك...

أختي: أما نحن، فوالدي هو الذي أراد ذلك. خاصة بسبب أمي. لقد طلب أن تخضع لمعاينة أطباء نفسيين...

سامي: هل هي مجنونة؟

أختي: مطلقاً! تمنى والدي أن تكون مجنونة كي يأخذنا ويسترجع الفيلّا ...

كونسطنتان: أنتم، عندكم فيلّا؟

أختي: ليس الآن. كانت فيلتنا في لبنان. كم أشتاق إليها، وكذلك الحديقة وشجرة الخوخ!

سامي: كفى تأوهاً! سأصحبك إلى بيتي. ستقطفين قدر ما تريدين... من ثمار شجرة الخوخ...

أختي: إنها ليست حبات شجرتي ولا تلك حديقتي.

انخفض فجأة صوتها وأصبح باكياً. لقد حرصت على أن تلفظ جيداً ضمائر الملك (شجرتي، حديقتي). أعتقد أنها كانت صادقة ولم تكن تُمثل كما يحدث لها في أغلب الأحيان. ثم عادت الأمور إلى مسارها.

سفيان: كم مرة في الأسبوع؟

أختي: ماذا؟

سفيان: المحلل النفسي...

أختي: أذهب مرّتين في الشهر. تسميه أمي المختص بعلم نفس الطفل... لكن أخي يرفض الذهاب إليه. إنه يقول: ليس هو المريض بل على والدنا أن يذهب هو... أما أنا فأحب الذهاب إليه. أروي له كل شيء... كل شيء! قصصاً عن والدي... نضحك كثيراً!

وأطلقت ضحكة كبيرة جعلت طرف لسانها يخرج من ثقب صغير تركته سن الحليب الثانية.

42

هدَّتني تلك المحادثة الطفلية.

آلمتني بقدر ما أثارت البلبلة والاضطراب في نفسي، إذ أيقظت فيَّ غضباً جديداً، وألماً جديداً... ونبشت جروحاً أخرى.

كان ذاك الطفل على صواب.

إن المرضى الذين تقتضي حالتهم طبيباً نفسياً ليسوا نحن، يا أبي، لكنهم هؤلاء الذين لا يتوصلون إلى كبح جماح شهواتهم، أصحاب الذاكرة الضعيفة الذين ينسون أنهم أنجبوا أطفالاً. تذكر أن هناك من بلغوا الستين ويتصرفون كمراهقين.

التشخيص المرضي هنا ؛ يكمن فيهم!

لقد طرحت على نفسي تساؤلات كثيرة وأنا أصغي إلى الأطفال الثلاثة الذين تركهم آباؤهم، إنهم يتحدثون مع ذلك عن "الوضع الاجتماعي"، وعن تعدد الزوجات وعن البطالة. علمتهم المحنة القاسية مواجهة المشاكل. صارت حياتهم البسيطة حقل تجارب. فبقدر ما تكون التجربة قاسية، يتعلم الإنسان أشياء، وهذا ما كانت تقوله لي أمي ونحن نقطع البحر المتوسط.

وأنت يا أبي، هل فكرت "بوضعنا الاجتماعي" الذي وصمتَه؟ هل كنت واعياً تجربتنا الحياتية الطويلة والقاسية؟

هؤلاء الآباء الذين كانوا موضوع حديث أولادهم الرئيسي، قد حطموا، كما فعلت أنت، الطفولة البريئة. أساؤوا إليها بسلوكهم وتركوا في نفوس أولادهم ندباً. وأعتقد أن الصدمة النفسية هي التي أتاحت لهؤلاء الأطفال (ذوي المشاكل) أن يُعَبِّروا بحرية، وأن يتحدثوا بعفوية، وبشكل لاشعوري عن تخلي آبائهم عنهم، وعن الخيانة وعن الغياب؛ استطاعوا أن يحكموا على الراشدين الذين فقدوا الشعور بالمسؤولية وأن يتحدثوا عنهم باحتقار. يناقشون مشاكلهم الخاصة من دون أن يُدركوا واقعهم الجارح.

ربما يسامحون وهم في ذاك العمر.

من هنا ولدت، على الأغلب، فكرة الاتصال بك من جديد، وإرسال رسالة عن طريق الإنترنيت. وهذا ما كان يقززني في السنوات الأولى لإقامتنا في فرنسة. ويعود السبب إلى بخلك وإلى لامبالاتك وبلادتك. كنت أتساءل عن طبيعة الآباء. لأنه على الرغم من الأرباح الضخمة التي تجنيها في لبنان، فلقد صممت على التخلي عنا وتركتنا لرحمة الضمان الاجتماعي، ولنعيش من المساعدات العائلية ومن الإعانة السكنية.

لهذا السبب بالضبط رفضت أن أجيب على نداءاتك الهاتفية، وأن أكتب إليك رسائل إلكترونية على الرغم من

توسلات أمي كي أبقى على اتصال معك. يا لها من مسكينة! كنتَ تتهمها ظلماً بأنها السبب المباشر لتمردي عليك. قلتَ ذلك في المحكمة، وللمحامي، ولأصدقائك، ولأصدقائها: هي التي كانت تغذِّيني بالحقد ضدك.

كلا يا أبي، هنا أيضا، كنت غير منصف لها، كما عهدتك. أنا الذي رفضت التحدث معك، وحتى الاتصال بك عن طريق الإنترنيت، لأنني بدأت أفهمك. وذات يوم، نجحت أمي، بمساعدة والدتها، في إقناعي، إذ أكدت لي أن الحفاظ على العلاقة بين الأب والابن يوفر للابن الصحة النفسية.

استسلمت في نهاية الأمر. أرسلت لك عدة كلمات في منتهى الصدق لأنها منبعثة من جراحي التي لم تندمل البتة. وكانت تلك الجمل جواباً فورياً لرسالتك القاطعة.

لقد وضعتُ فيها كل قلبي.

في رسالتك (الملأى بالأخطاء النحوية مثل رسالتي) شَجَعْتَنا، أنا وأختي الصغيرة، على القدوم إلى لبنان. أود أن أنشِط ذاكرتك بأن أذكرك بجوهر رسالتك:

نرغب في المجيء لرؤيتك يا أبي سواء في عيد الفصح أو في العطلة الصيفية، لكننا نخشى المجيء، بسبب كل القرارات التي أرسلتها إلينا من المحكمة الاسلامية والتي كَتَبت أنك تحتفظ بنا. لا تظن أنني لا أقرأ جميع الملفات

التي تسلّمتها أمي. إنني مطلع على كل شيء ؛ أقرأ ملفاتها حالما تدير ظهرها.

أصحيح أنك تريد إخافتنا بإرسالك أسبوعياً رسالة مسجلة بواسطة محاميك؟ هذا ليس لائقاً بوالد، الأفضل أن تحدثنا عن ذلك بصراحة.

لن ألجأ إلى اللف والدوران في هذه الرسالة. إنني لا أكتب إليك لأحدثك عن خياراتي، لكن عن خيار واحد: العيش مع أمي، وأريد أن تحترم هذا الخيار. إنني وقد حُشرت بين قوتين، أشعر بالضياع، وهنا وصلت إلى نقطة لم يعد في استطاعتي التحمل. لمَ أرفض العودة إلى لبنان؟ هنا أجيبك بأسباب بسيطة تدفعني إلى البقاء في فرنسة. هذه الأسباب هي أصدقائي، ودراستي، وأسرتي، وأخيراً رفيقتي التي أرفض التخلي عنها كجبان (كما يفعل بعضهم! لقد فهمتَ ما أعني). إنني مصمم على البقاء هنا، كي أكون بالقرب من أمي... إلخ...

بلغت اليوم الخامسة عشرة. ما زلت صغيراً، وهذا ما تنساه غالباً، وفق مدى كرهك وحقدك الكامن في أعماقك. هكذا أنا في نظرك طفلاً تارة، وراشداً طوراً.

وهذا الخلط المخادع يثير غضبي.

كف إذن عن قولك لي إنني لا أزال "صغيراً "وإنني "عرضة للتأثير عليَّ؛ كف عن الحديث عن "الدعوى" التي "رفعَتها" أمي؛ وعن التأكيد بأنها مصدر كل الشرور، وعن

القول "إن شعورها بالذنب" يدفعها إلى ملاحقتك قضائياً وهي تحلم بدراهمك. أين حقوقها كزوجة، أو أم، أو امرأة؟ لماذا لا تتحدث عن تلك الحقوق وتريد أن تجردها منها؟

لكن الجميع يعلم ذلك: فالأزواج المذنبون، والآباء غير المسؤولين، والشركاء المنحرفون، إلخ... يلجأون دائماً إلى تلك الوسائل الخبيثة والملتوية ليبرروا أفعالهم الشنيعة بإلقاء الذنب على الآخر. لا تدَّعِ البراءة، أنت تعلم تمام العلم ماذا أعني بقولي هذا! فالخبث، والأكاذيب، والقصص، والترهات... وكل ما تبعثه إلينا برسائلك أو بالهاتف هي مواقف مخزية في نظري. إن كذبك علينا هو كذبك على ذاتك أيضاً وهذا ما يثير اشمئزازي.

إلّا أن الموقف الذي أثار حقاً في نفسي الاشمئزاز والاحتقار هو طريقتك النذلة والمخادعة لتبرر أفعالك. كتبت إليّ، فيما كتبت، (من تُحدث: الراشد أو الصبي؟ أو اختلط الاثنان في رأسك؟):

... وبدلاً من أن تقوم بتعليقات مزعجة تجاه والدك، بإعطائه دروساً وأنت في الخامسة عشرة، تذكرْ أمراً واحداً، إذا كانت ذاكرتك لا تخدعك: قبل رحيلكم من لبنان، أنا الذي غادرت الفيلّا التي أملكها. كنت أستطيع أن أصحبكما معي؛ ولما كان في مقدورها أن تحرك ساكناً لأن لي حق الوصاية. لم أفعل ذلك كي لا أحدث أثراً عميقاً فيكما بانتزاعكما من والدتكما...

إنني حين أقرأك، وأكتشف الذرائع المزيفة التي ذكرتها بكل وقاحة، يبلغ سخطي ذروته. يا لكَ من محتال ماكر! يا لك من ملفق للأساطير! تعرف كيف تتملص من المواقف الصعبة، يا أبي، وذلك باللجوء إلى تشريع بلدك وقوانينه القضائية. لكنك نسيت أمراً اكتشفتُهُ للتو مع والدتي، في كتب القانون التي غالباً ما تتصفحُها. لقد نسيتَ أن الأحكام القانونية اللبنانية منقولة عن القوانين الفرنسية، ولكن تطبيقها وحده يختلف.

إنه الفساد، يا أبي، الذي يشكل \الاختلاف. ففي بلدك، المحتالون جحافل. هؤلاء يشرِّعون بطريقة المساومة. تذكر، بدورك: لقد رشوتَ قاضيك، يا أبي، واخترته ممن يكره النساء. وليس هذا بمستغرب في مجتمع يمارس العهر! هذا فظيع! هنا في فرنسة، تُعَاقَب بقسوة هذه الشعوذة، على ما أعتقد...

إذن، فلنتحدث عن أملاكك، لاسيما "الفيلَّا" التي ليست ملكك الشخصي! أنسيت شريكتك (وتعني هذه الكلمة "ارتَبَطَ واتَحَدَ مع") في السراء والضراء؟ تلك التي قبلت أن تشاركك حياتك، وأن تتحملك وتصبح أم أطفالك؟ لقد تخلتْ عن عمل رائع لتربينا. ضحت بمرتبها العالي لتجعل منا تلامذة مجتهدين في صفوفنا. وتذكرْ أننا في المساء، حين نرجع من المدرسة، كنا طلابها، ولسنا بطلابك، أنت الذي لم تقترب البتة من كتبنا ومن وظائفنا؛

وكنا ننجح بتفوق في صفوفنا.

بفضل أمنا.

كيف يُفسَّر هذا الحب العظيم الذي يسمو فوق كل المشاعر الأخرى؟

تقول إنك أنت الذي "غادرت الفيلّا". (هذا صحيح، وإن كنت عملت المستحيل كي تغادرها "هي" سواء أشاءت أم لم تشأ) لكن، كن صادقاً يا أبي، و"منطقياً مع ذاتك" كما يقول لنا غالباً أستاذنا في الفيزياء: غادرتَ فيلّتك لتعيش مع عشيقتك وتتخلى عنا! خرجت منها لتتركنا! مُطلِقاً العنان لملذاتك، ولنزواتك، ولأنانيتك! رحلت لتقتنص شهواتك. كم كنت صياداً ماهراً! تساءلتُ كيف لا تخجل من أن تحدثني بذلك، وأنت ابن الستين!

43

نسيتَ أن ترانا، وأنت مستغرق في النظر إلى ذاتك.

ليست قصة رحيلك المدبر وحدها هي التي شحنتني بالاحتقار. كانت الرسائل التي تضمنتها رسالتك نذلة، ومحرجة وتُذَكر بوضع مستشاريك المشبوه. إليك ما كتبتَه لي:

كنتُ أستطيع أن أصحبكما معي؛ وما كان في مقدورها أن تحرك ساكناً لأن لي حق الوصاية.

تقول عنها "هي": لماذا تُحَظِّر على نفسك أن تلفظ اسمها يا أبي؟ اسمها الذي كنت تبجله في الماضي، والذي بهرك طويلاً، وكان موضع فخرك واعتزازك؟

هل فقدت الاهتمام به الآن؟

إن نوعاً من الشرف والنزاهة ضروري!

" حق الوصاية على الأطفال ". كان هذا كل ما تهدد به، ولم تكن على لسانك إلّا تلك الكلمات! كنتَ تشهرها كنصل قاطع لتذبح بها رقبة أمي متحيناً الأوقات الملائمة.

وأعترف أنك برعت في لعبك السادي! كنت تجد في لبنان مرتعاً خصباً لهذا اللعب! حيث تنمو أخلاقيات جديدة؛ حيث تصبح الخيانة "وجهة نظر".

كلا، "لا تخدعني" الذاكرة: كنت تقوم بابتزازاتك بهذا السلاح. أنت، "الوصي علينا"؟ تصور قليلاً الوضع، يا أبي! لعهدت بنا إلى خادمة كي تهتم بنا، لأن سيدتك المصونة لا تحب الأطفال.

أنت "الوصي"؟ لا أتصور ذلك البتة! وأظن أنك لا تؤمن به لكنك كنت تعاند بلعب هذا الدور كي تحطم أمي التي لم تستطع نهائياً تحطيمها!

يا للوقاحة الساخرة!

أنت الذي تحتاج إلى "وصاية"، فأنت أب في الستين يُخرِّف.

كلنا يعرف أن هربنا يلائمك كثيراً. هكذا نقصت مشاكلك! ومشاكلنا أيضاً! وضع هربنا حداً لمأساة جهنمية دامت سنين طويلة.

أملْتَ أن يكون القضاء الفرنسي معك ويمنحك كل ما تطلب ويُصَدق ترهاتك. ظننتَ أنه من السهل أن تجد، كما في لبنان، الشخصية المناسبة لتربحك دعواك: محامي الشيطان، المرتزق والشرير. رحتَ تبعث لي رسائل مقتضبة لكنها مقلقة لتوهمني أن أمي "خاسرة".

في آخر رسالة قلت لي لتشعرنا بالإحباط:

"في نهاية المطاف ستُصاب هي بالخيبة...".

هي؟ ثانية؟

اللعنة!

أنت تخفي اسمها، وتحوله إلى كلمة صغيرة من حرفين كصدى بليد لضعفك! لا تجرؤ على لفظه ولا على كتابته!

فهو يرعبك حالياً.

يشعرك بصغرك وبذنبك فتهرب منه!

إنه الجبن بعينه، يا أبي!

منذ زمن ليس بالبعيد، حين كنتُ في الرابعة أو الخامسة من عمري، كنتَ تحرص على أن تنادي أمي ليس باسمها بل بتصغير مفعم بالحنان والحب. كان هذا يسعدني ويطمئنني.

أما اليوم فتعبئ اسمها بالكره. لأن آمالك الوحشية قد أخفقت!

أتذكر ذلك؟

كانت محكمة الاستئناف وفق مصلحتنا: "حكمت عليك" بأن تسدد التزاماتك نحونا من تعويضات ونفقة لم تدفعها حتى اليوم، والمتأخرات، إلخ. إننا في فرنسة يا أبي، بلد آمالك المجهَضة!

أيقظ ذلك من جديد الوحش الكامن في أعماقك.

وكل هؤلاء المحامين الذين يعللونك بالأمل؟

فررت إلى بلدك، إلى جنة الضرائب. أملتَ أن تَفلُتَ من الأحكام القضائية بهربك. أنت المسلم الزنديق، استغْلَلْتَ القوانين الدينية، تلك التي تعطيك الحق في أن تُطلق زوجتك وتضربها، وتطردها، وتحتفظ بها، وفق مشيئتك!

أنت الذكر.

أنت الشر، يا أبي![9]

كانت أمي تقول لي: ليست القوانين هي السيئة بل الرجال الفاسدون والخبثاء الذين يطبقون تلك القوانين.

إنك تتمسك بأنظمة دينية على الرغم من أنك لم تكن يوماً مسلماً صالحاً، وأقصد في ممارسة دينك. لم تصم يوماً في شهر رمضان (وكذلك أمي)؛ لم تُصلِ يوماً ولم تؤدّ فريضة الحج بزيارة مكة... لماذا تأتي الآن لتبرر غاياتك بوسائل لم تؤمن يوماً بها البتة؟ تُطلِّق زوجتك وتطالب بأطفالك باسم تلك القوانين؟

يا للخبث!

إنني أتذكر سهراتك الرمضانية. دعواتك إلى "الإفطار" (أفضل كلمة "قطع الصيام") بينما لم تُرَاعِ مطلقاً الصيام في رمضان.

إنني أفهم ذلك: بروحك العلمانية، تقيم مع ربك علاقات شخصية.

لكنك تحاول أن تخدع ربك باللجوء إلى تلك القوانين الدينية بهذا السبب وحده لأنها تلائمك وتخدم مصالحك الشخصية!

تريد، باسم الإسلام أن تقترف المظالم وتحصل على

---

(9) هنا جناس باللغة الفرنسية لكلمة "Mâle" وتعني الذكر وكلمة "Mal" وتعني الشر. (المترجمة)

امتيازات لا يقرها القانون بينما نجد أن أول تعليم للإسلام هو إحلال العدالة.

العدالة: إنها القيمة الأكثر ضرورة وفق وصايا الإسلام وهناك أناس مثلك، يستغلونها بإساءة استعمالها (قمت في هذا المجال بأبحاث كثيرة).

44

أردْتَ إذن، لتحرم أمنا ولتزعزع استقرارها وتوازنها، أن تأخذنا في حين لم تهتم مطلقاً بنا. تذكر موقفك حين كانت أمي تطلب منك أن تسمِّع لي درس التاريخ.

كم كنتُ أشعرُ بالغيظ، وحتى بالمهانة، حين تعهد بي إليك للتسميع. كنت أتفوه أحياناً بتعبير غير واضح، أو لا أحسن اللفظ. والنتيجة: صفعات رنانة على رقبتي أحتفظ حتى اليوم بلسعها.

حين لاحظت أمي الرحيمة ما يجري امتنعت عن طلب ذلك منك وأخذت على عاتقها الاهتمام بدرسي. أما أنت فسُعدت بخلاصك.

كيف تفكر بأخذنا حين لا تستطيع الاهتمام بدرس واحد من دروسي؟

أوقفْ إذن أكاذيبك.

لقد أصبح شغلك الشاغل تلوية القوانين، والتصرف ضد العدالة، وتنويع وسائل الرشوة والفساد.

كنت تأمل دائماً تحطيم زوجتك.

كنت تحلم بذلك.

وكما تقول جدتي " إنه حلم إبليس بالجنة".

ظن محاميك اللبناني نفسه أشد مكراً فأخرج لك قصة الإنتربول حين أدرك إخفاق المشاريع الشيطانية التي كنتما تدبِّرانها معاً.

إذن أخرج لك فزَّاعة أخرى جعلتنا نرتجف فعلاً. أول الأمر فقط.

لكنه كان يخدعك ويحتال عليك بألاعيبه، مستغلاً ضعف حسك السليم ونقص بصيرتك.

كنت تهددنا عن طريقه "باسترجاعنا" بالقوة.

رحت "تَعِدُنا" بانتزاعنا "من المجنونة". تردد في كل زيارة من زياراتك غير المستحبة: " سأنتزعكما من بين ذراعي تلك المجنونة".

كنتَ تقسم لنا بالآلهة وبالأنبياء أنك "ستعيدنا إلى الوطن بأقصى سرعة بواسطة البوليس الدولي. فكلمة الإنتربول ككلمة "الوصاية" و"المجنونة"، و"حضانة الأطفال" وغيرها راحت تقرع بهول في فمك وفي رسائلك. كنت تلغو بها على مسامعنا لتخيف أمنا.

الزيف يرن في كلامك.

لم تكن تعرف حتى أصل الكلمة المختزلة (INTERPOL) أو ما تمثله تلك الكلمة. وإلَّا لماذا كنت تضع كل مرة الـ التعريف أمام هذه الكلمة في رسائلك الإلكترونية؟ تكتب "سأرسل لكم الإنتربول".

ألـم تـحاول يوماً أن تبحث على الإنترنيت في موقع (Google)، أو في (Wikipédia) لتعرف معناها؟ ألا تهمك الأبحاث وأنت في الثالثة والستين؟

ماذا يهمك بالضبط؟

إذن سأقول لك ما هو هذا الشيء الخارق الذي ظننتَ أنه سيساعدك على الانتقام.

(INTERPOL) هي إذن المنظمة الدولية الثانية بعد منظمة الأمم المتحدة (ONU)؛ ولها سبعة مكاتب إقليمية: في الأرجنتين، والكاميرون، و شاطئ العاج، والسلفادور، و كينيا، وتايلند، وزيمبابوي، وتتمتع بحق التمثيل في الأمم المتحدة في نيويورك. أما في فرنسة فيقع مكتبها في الدائرة السادسة في مدينة ليون. واسمها الكامل بالفرنسية هو المنظمة الدولية للشرطة الجنائية، فإذا اختُزِلَتْ الجملة تصبح بالفرنسية (OIPC).

الشرطة الجنائية: هل فهمت، يا أبي؟

كنتَ تردد كالببغاء ذاك التعبير من دون أن تعرف أنه يستخدم "للجرائم" و"للمجرمين" وليس لأم أرادت أن تحمي أطفالها، وأن تنقذهم من مظالم الشيوخ ومن الأب غير المسؤول والمنتقم.

(INTERPOL)، إنها الشرطة الجنائية، يا أبي!

إنه الغول الذي كان يُخيفنا ويفزعنا حين يتتابع تهديدك ووعيدك.

كانت الفزّاعة التي هززتها في وجوهنا كلما سيطرت وضاعتك عليك.

أما نحن، فكنا كالعصافير الوجلين، نرتجف بملء أجنحتنا.

إنك، يا أبي، تجيد دور الإرهابي!

لكن محامي والدتي، وكذلك طبيبنا النفسي قد هدأا من روعنا: إننا في الثانية عشرة وفي العاشرة ولا تستطيع الشرطة الجنائية التدخل في حالتنا. من مهام القاضي أن يسألنا ليعرف مع من نريد البقاء من "والدينا" وبكل بساطة.

لم تعد "فزّاعاتك" تفزعنا! كلا يا أبي! قل ذلك لمحاميك الذي غشك: إننا لسنا "بمجرمين" كي تلاحقنا الشرطة الدولية!

إخراجك المسرحي مثير للسخرية،

وجميع إخراجاتك المسرحية على هذا الشكل!

وهي كثيرة جداً.

بمجرد أن انتهى فيلمك عن إنتربول، ابتدعت لنا فيلماً آخر، أكثر جدية، وأكثر واقعية: إنذارات ووقائع قانونية. عمدت إلى تشويه الحقيقة بشكل فاضح حين لم تشفِ حقدك وترو غليلك، لجأت إلى بنيتنا النفسية وإلى مدارك أمنا العقلية.

يا للوضاعة! أخفقت آمالك ثانية. وأخِذت تهمك الشنيعة والكاذبة لمصلحتها وليس ضدها.

خيط الكذب في منتهى الهشاشة، يا أبي. عليك أن تعرف ذلك. كل شيء يُعرف عاجلاً أو آجلاً.

ولا أمر أصدقَ من الحقيقة.

إن الخبيرين النفسيين (طبيبنا وطبيب أمنا) بعد أن فحصا عن قرب دقة اتهاماتك، وبعد أن برهنا على العكس، سَخِرا من فعلك وقد أظهرا تأسفهما لعدم استطاعتهما المشاركة في آرائك " غير الصحيحة" (كي لا يقولا "ادعاءاتك الكاذبة").

إن قراءتي السرية لقرارات القاضي قد انتهت بي إلى ملاحظة وهي أن المصاب بالجنون هو أنت.

أية براهين عن الجنون، وشذوذ القدرات العاطفية وانحرافها أعظم من الكراهية التي أظهرتها بمنهجية وبانتظام نحو المرأة التي شاركتك أوقات حياتك الكبرى؟ إن خطابك ومشاعرك أقرب إلى كلام المعتوهين وأحاسيسهم.

أنت الذي تشوش حياتنا الطبيعية، يا أبي. لقد زعزعت طفولتنا؛ واليوم، وعلى الرغم من بعدك، تسعى إلى قلب مراهقتنا رأساً على عقب. لذا طلبتُ منك أن تكف عن مخاطبتنا، وعن الاتصال بنا، وإن كانت أختي الصغيرة تطلبك أحياناً.

45

أنت معتزلٌ في مدينتك اللبنانية، ونحن منفيون في مدينتنا الفرنسية، إلّا أنك لا تكف عن إثارة المشاكل لنا وإزعاجنا.

وها أنت تعد فصلاً جديداً لمسرحيتك!

تقرر المجيء إلى فرنسة؛ لتضع حداً لعزلتك. تعتصم بالشجاعة وتظهر ثانية أمامنا.

قررت أن تأتي عندنا لكن ليس من أجلنا!

كنت تتضور شوقاً للمجيء!

بعد غياب أكثر من سنتين.

كنت تموت غيظاً إذا ما مُنعت من المجيء.

أنت تمتنع كي تهرب من التزاماتك التي حَكم بها عليك قاضي الشؤون العائلية.

كنت متلهفاً للمجيء كي ترينا وجهك ثانية.

فرنسة التي تعرفها شبراً شبراً.

حيث حصلت على شهاداتك ولك فيها أصدقاء.

لن تأتي لتترانا بل لتوقعنا في قبضتك، كما هي الحال دائماً.

توقعنا في براثنك أي تغشنا وتخدعنا، تقهرنا وتصعقنا.

أنت لا تتوانى عن القيام بأي عمل للوصول إلى هدفك!

وقد خاب أملك بفرنسة العادلة والمنصفة.

مضت سبعة أعوام، منذ 2003.

ملخص المحامي كان وافياً.

لك علاقات خارج الزواج تحرص على إشهارها. بدأت تسيء معاملتنا.

توقفت عن المشاركة في أعباء الأسرة، وقد تركتنا وحدنا مع أمنا في بيت منعزل. وذهبت أبعد من ذلك إذ قطعت عنا الكهرباء والهاتف. اضطرت أمي أن تصرف مدخراتها لتعيلنا.

في عام 2006، كان حادث الأمدم، وخرجت صحيحاً معافى لكن بسلوك شائن. أقمت عند عشيقتك لتعيشا حياة ترف من دون أن تهتم بنا. قدمت أمي شكوى إلى المحكمة الإسلامية في طرابلس.

استُبيحَت سريعاً حقوقها.

فالطلاق في لبنان يخضع لقوانين الشريعة الإسلامية. إن أمي فرنسية الجنسية؛ لكن لا يوجد أي اتفاق دولي في هذا المجال.

وقعتْ الحرب الإسرائيلية. رفضْتَ مساعدة أسرتك المهددة بالخطر وإعانتها. هربنا. أعادتنا فرنسة إلى الوطن بواسطة سفارتها، باعتبارنا رعايا فرنسيين، مع عشرة آلاف وثمانمائة فرنسي آخرين.

سجلت أمي، الزوجة المخدوعة، والمهجورة، شكوى

ضدك في مركز الشرطة. في نهاية العام، أرفقت شكواها بطلب بالطلاق.

قالت أختي الصغيرة للقاضي: كان يضربنا؛ يضرب أخي وأمي على رقبتيهما، على ظهريهما...

أضافت كذلك: لا أريد أن أراه بعد اليوم.

لاذت أمي بالصمت.

يتسم المراهق بالشعور بالخجل، أما الطفل فنادراً ما يحس الخجل لاسيما حين يعي أنه يقول الحقيقة.

حُكِم عليك بالنفقة على أسرتك في فرنسة. رحلتَ ولم تعد البتة، على الرغم من استدعاءات المحكمة. هربْتَ. تواريت عن الأنظار.

تخوفت من القوانين الفرنسية، فرحت تدفع مستحقاتنا قطرة، قطرة، مسقطاً منها حصة أمنا.

اعتبرتك محكمة الجُنَح "مذنباً بالتخلي عن أسرتك" وحكمت عليك بالسجن مدة أربعة أشهر، بشهرين منها مع وقف التنفيذ.

تُغَير محاميك وتثير من جديد مشكلة عدم الكفاءة والخلل العقلي بدعوى ضد أمي.

منحتك المحكمة حق زيارة أطفالك وإيوائهم طوال العطل كافة. لكنك لم تأتِ. تكاد لا تؤدي من واجبك إلّا النزر اليسير. إنك تحرص على عطلك بالتخلي عن عطلنا معك.

تخليت عن حقك المقدس وهو أن تكون مع أولادك. إنك تضجر بسرعة معنا، وهذا ما نعرفه من قبل.

صدر حكم الطلاق في عام 2009.

لم تقبل به. أوكلت محامياً رابعاً في باريس، فرنسياً ـ لبنانياً.

تضاعفت آمالك. وخابت بسرعة.

قام ذاك المحامي بإرسال إنذار جديد إلى أمي.

طلبتَ أن يكون الطلاق "حصراً بسبب أخطاء" زوجتك.

بتعبير آخر، تريد أن توقع الخطأ عليها؛ حصراً!

يا لك من ماكر!

أنت في نظر المحكمة ماكر.

أنت الذي هجرت بيت الزوجية وليست هي، وتخلّيْتَ عن أطفالك الصغار لتتنعم بزوجة ثانية.

أصدر حكم المحكمة في عام 2009 قاضي الشؤون العائلية. وقد "ألقى هذا الحكم حصراً كل الحق على الزوج". "وامتازت الزوجة دائماً بسلوك لا مأخذ عليه".

ألقاكَ هذا الحكم في حالة من الجنون المطبق.

كنت كوحش كاسر وقع في الفخ فراح يقاتل، خرجت عن طورك.

أية مكايد ستدبر لنا لتثأر؟

وأية ذرائع سافلة تعد؟

ها قد مضت سبعة أعوام!

أربعة ونيف في فرنسة.
وأنت لا تزال تركض في المحاكم.
تحولت طفولتنا إلى مراهَقَة.
إنها مرحلة حساسة.
هل سنخرج منها سالمين؟
لقد مزقتنا، يا أبي،
حطمت ذاتنا ألف قطعة.

لكنني لأعزي نفسي، أنظر إلى الوجه الثاني للمشكلة، من جهته الإيجابية. أقول في نفسي إن أخطاءك وحماقاتك جعلتني أقطع البحر المتوسط من طرابلس إلى إيكس. إنها شريحة من الفضاء هائلة وشريحة من الزمن ممتدة، بعيداً عن تعذيبك. ثلاث غرف بإيجار متواضع لثلاثة أحلام لم تكتمل.

سأقول أيضاً: غالباً ما يكون لجراح النفس جانب مضيء. إنها "تعلمنا". تحثنا على البحث عن الحقيقة؛ وبالتالي فهي تحمل بشائر وعود توقظ المواهب والقدرات الكامنة. مثل شجرة نحزها لنزرع فيها طعماً، وينتهي الأمر بهذا الطعم إلى أن ينبت ويزهر (على الرغم من أن هناك أجناساً ترفض الطعم).

تكتب أختي الصغيرة، وهي في الثانية عشرة، أبياتاً مفعمة بالرومنسية.

ستصبح ذات يوم شاعرة كبيرة.
أما أنا فسأكتب قصتي.

قصتنا، يا أبي!

قصتك أولاً: لن تكون بطلها إنما ممثل بائس يلعب الدور الرديء.

وفي أحسن الأحوال قد تكون البطل/الضد الذي ليس فيه أدنى بطولة.

كما أنت في الحياة.

ثم سأكتب قصة أمي، البطلة. وسيكون دورها رائعاً. إنها الملاك الحارس، الحاضر دائماً في الأوقات العصيبة من القصة كما هي الحال في حياتنا. كرمها لا حدود له، سمو نفسها مدهش. تُقَدِم قلبها لنا وكل ما تستطيع أن تعطي؛ نحن قضيتها النبيلة وثمرة جسدها!

46

الكرم، هذا الشعور النبيل (الذي لا وجود له عندك) يسمو بالإنسان ويحثه على العفو والتفاني، يدفعه إلى العلو وتجاوز الأنا وصغائرها.

أما الأنا التي تخصك! فإنها مع الأسف تَجُرك إلى الدرك. إنك توليها اهتماماً كبيراً، فتملي عليك أسوأ التصرفات.

لقد منعت عنا أبسط الأمور، وأكثرها بداهة: الاهتمام بأطفالك وتلبية حاجاتهم. كان الضمان الاجتماعي منقذنا... بينما يكسب والدنا المحترم في بلده أموالاً وفيرة، ولا يحرص إلَّا على شيء واحد: تجميع الأموال والحصول على الأملاك والمقتنيات من أثاث وبنايات.

كنت تختبئ.

تخفي مواردك.

وهذا ما يصدمني.

لذا كانت رسائلنا واتصالاتنا الهاتفية تخفق في كل مرة وتنتهي بقطيعة.

سأكتب قصتنا، يا أبي.

فالكتابة وحدها قد تخلد الحقيقة والحياة؛ تبقى الكلمة كلمة تتمدد في الهواء وعلى موجات الأجهزة. فهي لا تحمل أي برهان على الحقيقة.

فحين يتحدث المرء عن قصته، يجعلها من مكوناته، ويتمثلها، فيُحسِن فهمَها. وبالتالي، يتآلف مع ألمه، يهدئه، يسيطر عليه، يدجنه ليسمو فوق الجراح التي لم تندمل جيداً. وهذا معزٍ، كما يبدو لي. حين تصبح الكلمة كتابة توجد الحقيقة.

غالباً ما يحدث لي أن أعود إلى الوراء. سنتين، ثلاثاً، أربع سنوات فأتوقف عند جرح، أو خط احتفظتُ بذكرى لاذعة عنه.

وعلى سبيل المثال ما حدث غداة عامي الثالث عشر.

نحن في إيكس، حيث تتلألأ الشمس غالباً كشمس لبنان، وكما يحدث في البلاد الجنوبية.

كان صباحاً باكراً جداً حين أيقظني ألم حاد، في أسفل البطن. شعرت بأنني أكاد ألفظ روحي. أخفت أمي قلقها وارتياعها ونقلتني بحالة إسعاف إلى مركز إيكس الطبي. حين صعدتُ إلى السيارة لفحتني ريح حارة من رياح أيلول فمسحت شعري (إن شعري طويل الآن) وأسقطت على رؤوسنا أوراق شجرة الحور التي تظلل سيارتنا. ذكرتني الشمس كما ذكرني ألمي الحاد بيوم رحيلنا من لبنان (كما ترى، لا أستطيع أن أطرد من ذاكرتي ذاك الأحد من شهر

آب): الريح ذاتها، والشمس عينها، والحرارة نفسها، لكن الألم مختلف. فهو الآن جسدي، وخارجي ؛ أما الألم السابق فكان نفسياً وداخلياً.

شخَّص أطباء المركز التهاباً حاداً في الزائدة. وصل جراح ببذلته.

إنه هو الذي سيجري العملية الجراحية المستعجلة لاستئصال الزائدة (عدتُ من جديد، وبشكل لاشعوري، ابن الطبيب الذي يهتم باللغة الطبية). لم نُعلِمْك لأننا نعرف مسبقاً أنك لن تأتي. إنك تتشبث بحبس نفسك في بلدك الأصل.

تحدَّث الطبيب الجراح مع أمي.

فجأة، انتابني شعور غريب بأنني وجدتك ثانية. فوجهه ومظهره كطبيب قد قاداني نحوك. وجه بدون اسم تطابق فيه وجهك مع وجهه.

منذ فترة وجيزة، ظننت أنني أكاد أنساك. لكنني أجدك حتماً: في بعض الوجوه، والنظرات، أو في بذلة طبيب. لا أستطيع طرحك بعيداً كما فعلتَ أنت. يا للغرابة، لقد تقمصْتَ فيه، هذا الرجل ذو البذلة والذي سيعطيني ما كان عليك أن تُعطيني إياه لو كنتَ هنا؛ أو لو كنتُ هناك.

كان يمثلك في ناظري.

كنت أعذب روحي ليعيد إليَّ صورتك.

فيداه، ووجهه تحت النظارتين، وبذلته...

كم هو جميل للإنسان أن يتأمل وجه أبيه في وجه آخر،

حين يكون الأب غائباً. إنه يتحدث مع أمي وأشتاق إليك. استحضرتك أمام عينيَّ وأنا المراهق الصغير، الابن بدون أب، الأقرب إلى اليتيم. صوت في داخلي راح يطلبك لكنك لا تجيب.

كان من النادر، على كل حال، أن تجيب على نداءاتنا.

كم وددت، وأنا ابنك، أن أتلقى منك الآن ما كنتَ تُعطيه للآخرين.

تهتم بتضميد الجراح إلاَّ جراحنا. تركتها مفتوحة بل ضاعفت فتحتها.

ثم تداعت الأمور بسرعة كبيرة كما ينزل الإنسان منحدراً. لم أعد أعي شيئاً. تموجت صورتك فوق رأسي. وحين استيقظت وأتت الممرضة لتضع لي الزَرق، كان وجهك يحلق في سماء غرفتي.

منذ ذاك الوقت، أراك كل يوم أربعاء في التلفزيون في برنامجي المفضل وهو "دكتور هاوس". ثمة فكرة تفلت لترجع نحوي، لكنها لا تلبث أن تعود أدراجها، مثل رسالة تُعادُ إلى مرسلها الذي رحل من دون أن يترك عنواناً.

أعرف ما أحن إليه كل أربعاء وأنا أرى التلفزيون: أشتاق إلى ظلك المُصالِح، والرافض أن يمتد. ظلك الأبوي الذي نسينا.

ها قد انقضت أربعة أعوام. فقدتُكَ. ثلاثون شهراً، لم أركَ ثانية. كيف أنت الآن... لا أدري. أبحث عنك ولا

أجدك. أغذي حقدي كي أمحوك من ذاكرتي، كي لا أفكر فيك مطلقاً، كي لا أبكي غيابك البتة. أناديك بكل الأسماء، أصفك حسب عمري الفتي. عشرة أعوامٍ، أحد عشر، اثنا عشر، ثلاثة عشر، أربعة عشر. وحتى اليوم. لكن، مهما كان مدى الحقد، يبقى الأب أباً وإن لم يكن إلّا أباً بيولوجياً.

وإلّا فلماذا يبحث الأبناء غير الشرعيين عن آبائهم الذين كانوا علة وجودهم؟

إنه الكائن البيولوجي الذي يطالب بحقه.

إنها الحياة التي تريد أن تأخذ مجراها الطبيعي...

أو ربما ذلك نداء الجذور...

اليوم، من علياء الخمسة عشر عاماً التي انتهت، صرتُ أقل انطواءً على نفسي، وبعد كل تلك السنين من الفراق ومن العذاب، أرى الأمور بعيني مراهق يُجَرم ويستنكر ويحكم معبراً بكثير من الوعي وبكثير من المرارة أيضاً.

لا أستطيع شطبك من حياتي. أنت أبي. فكرت دائماً أن للأب أهمية الأم ويجب أن نحبه بشكل مساوٍ.

لكنك نسفت كل شيء ونهائياً.

الأيام تمضي، يا أبي، والطريق مسدود دائماً. أما في الحياة فلا تبقى الأمور متحجرة.

وهذا لا يمنع من أنني أخذت من خلالك، وبفضلك، وبك دروساً رائعة في الأخلاق وفي الحب. ولم يتم هذا التعلم طبعاً بدون ألم.

من مواقفك وتصرفاتك العابثة، من أخطائك وهفواتك، وصَغارك ومكرك وخدائعك، استطعت أن أستخلص عبراً، وتعاليم وقناعات مختلفة:

علمتْني مظالمك العدل والإنصاف.

ورياؤك، الصراحة.

وأنانيتك، الكرم.

وكذبك، الصدق.

وخبثك، الاستقامة.

ونذالتك، النبل.

وقسوتك، الحنان.

وجبنك، الشجاعة.

وغدرك، الأمانة.

وحقدك، الحب.

أجل الحب الكبير.

فشكراً، يا أبي!

هل يمكن للابن أن يكره أباه لأنه تخلّى عنه وهو طفل صغير؟

هل له الحق في إدانته ولَوْمه لأنه هجر منزله وعائلته ليعيش مع امرأة سيّئة يريد أن يفرضها كأم جديدة؟

كيف يمكن لهذا الابن أن يبرّر فعلة أبيه - الشائنة بنظره؟

هل يغفر له بعد أن دمّر طفولته وحطّم مراهقته؟

وماذا بالنسبة إلى صورة الأب اللازمة لنموّه وتفتّحه على الحياة؟

تلك هي أسئلة تجيب عليها هذه الرواية المليئة بالحنان وبالحقد معاً.

إيريك الذي أتمَّ عامه الخامس عشر، يتساءل باستغراب عن العلاقة الحساسة التي تربط صبيّاً مراهقاً بأبيه الأناني.

عزّة آغا ملك،

- روائية وشاعرة وناقدة أدبية حائزة على ميدالية برتبة فارس ثم ضابط في الفنون والآداب من الدولة الفرنسية، وعلى دكتوراه دولة في الأدب والتواصل ودكتوراه حلقة ثالثة في الألسنية من جامعة ليون في فرنسا.
- أستاذة في الأدب والألسنية في الجامعة اللبنانية وجامعة القديس يوسف لأكثر من ربع قرن.
- صدر لها أكثر من 25 مؤلفاً، فضلاً عن العديد من المقالات الأدبية والاجتماعية المتخصّصة.




ISBN 978-9953-71-726-5
9 789953 717265